اقرت وزارة المعارف العراقية تدريس هذا الكتاب في دار المعلمين العالية

تاريخ علوم اللغة العربية

تأليف

العلامة المرحوم

طه الراوي

(الطبعة الاولى)

مطبعة الرشيد - بغداد

١٣٦٩ هـ ١٩٤٩ م

فاتحة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

وبعد ، فهذا كتاب تركه ابي ، مع جملة ما ترك من كتب ، شرع باملاء فصوله ، وعاجله القدر المحتوم قبل أن يتمه ويعيد النظر فيه . وقد تلطفت وزارة المعارف فرأت ان يطبع قبل غيره من الكتب التي خلفها ـ رحمه الله ـ لينتفع به طلابه في دار المعلمين العالية بيغداد ، فبادرت بالاشراف على طبعه شاكراً لرجال الوزارة التفاتهم واهتمامهم .

وقد عرضته الوزارة ـ قبل طبعه ـ على استاذين كريمين ، زاملا والدي وعرفاه خير المعرفة ، هما سعادة الاستاذ المصري محمد هاشم بك عطية ، وسعادة الاستاذ الدكتور مصطفى جواد ، وقد قدم كل منهما تقريراً عن الكتاب للوزارة ، وقد اعطيت الكتاب ـ بعد ان انجز طبعه ـ الى الاستاذ الدكتور جميل سعيد فكتب بعض ملاحظاته عنه ، وها انا اصدر الكتاب ـ شاكراً ـ بما كتبوه . وأسال الله ان ينفع به ، وان يعينني على نشر غيره .

المحامي

بغداد ـ كرادة مريم في ٣٠-١-٤٩ هاشم طه الراوي

تقرير الدكتور مصطفى جواد

حضرة رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر

لقد تصفحت كتاب تاريخ علوم الأدب للشيخ العلامة السعيد الاستاذ طه الراوي (رضي الله عنه). فوجدته من خير الكتب التي جمعت تاريخ ذلكم الفن واعظمها اتقاناً لدقائقه وحقائقه باسلوب رشيق وبيان عذب وتنسيق دقيق. بحيث اصبح لا يغني عنه كشف الظنون ولا موضوعات العلوم ولا غيرهما.

والمتصفح لهذا الكتاب يرى ان مؤلفه - رحمه الله تعالى - قد اسبغ عليه جمالا من ذكائه. واضفى عليه كثيراً من الايضاح والتلخيص. حتى اصبح سهلا فهمه قريباً علمه، واضح المعالم سوى السبيل.

ولذلك اقترح على اللجنة المحترمين الموافقة على طبعه والسعي في جعله من الكتب المقرر تدريسها في المدارس الادبية العاليه. وتقبلوا مولاي فائق الاحترام.

مصطفى جواد

عضو لجنة التأليف والترجمة والنشر بوزارة المعارف

تقرير الاستاذ محمد هاشم عطية

سيدي المحترم مراقب لجنة الترجمة والتأليف والنشر

تفضلتم بكتابكم المؤرخ في ٢٧ – ١٠ – ١٩٤٦ فكلفتموني بوضع تقرير عن كتاب مخطوط من تأليف المرحوم السيد الراوي ونوهتم عما تكرم به معالي وزير المعارف – اعزه الله – من الموافقة على طبعه مبادرةً منه الى المشاركة في تخليد ذكرى الفقيد ونشر آثاره النافعة بين طبقات المتعلمين في البلاد، وتمشياً مع المأثور من مبادئ معاليه فيما يبذله من المعونة المشكورة لخدمة التعليم وتشجيع النهضة الادبية في العراق الحديث. ولا شك عندي في انكم ستقدرون ما اثاره هذا التكليف في نفسي من الارتياح لما اتاحه لي من فرصة الاعراب ثانية عما كان للفقيد من منزلة. وما تركه في البيئة الثقافية من فراغ، سينقضي زمن قبل أن يترشح له من يخلفه فيه بمثل هذه الكفاية العلمية النادرة المثال.

واني اشرف بأن اضع بين يديكم ما لاحظته خلال مطالعتي لهذا الكتاب الذي كنت اخذت في دراسة فصوله قبل أن تبلغني رسالتكم الكريمة بعدة ايام ولا اكاد أنكر عليكم انني كنت استعين بالتأمل واطيل الوقوف مع المؤلف – رحمه الله – بين سطور الكتاب، طلباً

لتحقيق الموازنة العادلة بين ما يشتمل عليه من المناقشات الفاصلة للكثير من قضاياه ومسائله المختلفة وبين ما استطار لمؤلفه من الذكر واستفاض من الشهرة التي لا ينبغي ان يجعلها العقلاء وحدها دليلا على الاستحقاق ولا مستوجبة لما ينسجه الناس حول المشهورين من التعاريف والالقاب.

وقد اسلمني التصفح على هذا الاساس من التعقيب والنقد الى ما يتضمنه هذا التقرير الذي أتشرف بعرضه على انظاركم ليتخذ طريقه بعد البحث والمراجعة الى ما يتبين لكم من وجهة النظر المبنية على توخي العدالة ووضع مصلحة الجيل المعاصر فوق كل اعتبار . أما موضوع الكتاب فهو تاريخ العلوم العربية او علوم الادب كما اشرتم الى ذلك في كتابكم الكريم . وهي العلوم التي بدأ علماء المسلمين باستنباطها ووضع اصولها وابوابها منذ صدر الاسلام الى العصور التالية له كعلم اللغة او علم متن اللغة وعلوم البلاغة وعلم النحو والصرف والعروض والقوافي ورسم الحروف وغيرها وقد صدره المؤلف بمقدمة مسهبة في بيان الادوار التي تقلبت فيها كلمة الادب وما كان يطلقها عليه السلف من المعاني الى زمن ابن خلدون . وأتبع ذلك بفصول ممتعة في اصل العربية وتحرير ما تناوله الخلاف بين اللغويين من ردها الى البابلية او جعلها اصلا لاخواتها السامية وفيما صارت اليه بعد ما قطعته من مسافات التاريخ من الكمال اللغوي بسبب ما اختلف عليها من اساليب التهذيب وعوامل النمو التي ما يزال معظمها آخذاً باعناق اللغات الى التكاثر والنماء حتى عصرنا

هذا وافاض في الكلام على التعريب وبيان طرقه المختلفة عند العرب ونوه بحذقهم في اخضاعه لموازين اللغة وتصرفهم في سرعة الاستفادة منه من غير تردد ولا مشاورة ثم انتهى من ذلك الى ذكر الاوائل من الرواة وما كان لابي الاسود الدؤلي وتلاميذه من الاثر الملحوظ في وضع الاصول التي سار على نهجها فيما بعد اكثر الباحثين من علماء العربية في العصور المتأخرة . وبدأ بذكر علم اللغة فلم يدع رسالة صغيرة ولا مطولة ولا كتابا ضخما ولا معجما خاصا او عاما الا ذكره وعرف بواضعه واسهب في بيان فائدته وطريقة تأليفه والتنبيه على ما عسى ان يكون قد وقع لصاحبه من عثرة قلم او زلة قدم .

ومضى بهذه الاستفاضة من الدراسة والبحث في ذكر مجتهدي النحاة من علماء المصرين : الكوفة والبصرة وغيرهما الى المائة العاشرة من الهجرة . وعرض للخلاف المشهور بين نحاة البصرة والكوفة والى معظم المذاهب الشائعة بين غيرهم من الأئمة في هذا الموضوع وذكر جميع الموسوعات الكبرى وتواريخ تأليفها ورجالها مما قل ان تجد له نظيراً في كتاب آخر من الكتب التي عالجت هذه المباحث للمتقدمين والمتأخرين ويمتاز الكتاب بمراعاة الضبط والدقة في سياق الحقائق العلمية والتاريخية والعناية بالاعلام واسماء المؤلفين الذين لا يزال يخفى على كثير من خواص المتعلمين وجه الصواب في النطق بها خالية من التحريف والخطأ كضبطه مثلا اسم يحي بن يعمر من اصحاب ابي

الاسود بقوله (بعمر يفتح الميم كيذهب) ومعظم علمائنا ينطقونها على ما اعلم بضم الميم عدا ما ظهر من فضل المؤلف فى جمع شتاتها وحسن تبويبها وما وشح به حواشيها من سوانح ادبية وديباجة مطبوعة تشوق المطالعين وتحبب الكتب الى القراء . ومن اجل ذلك ارجو وانا ادع لكم الرأي الاعلى فى تقدير الكتاب واعتماد صلاحيته للنشر - أن تتفضلو بقبول ما اكنه لكم في نفسى من الاحترام والتجلة والسلام عليكم ورحمة الله .

٣ تشرين الثانى ١٩٤٦ — محمد هاشم عطية

استاذ الادب العربى فى دار المعلمين العالية

بسم الله الرحمن الرحيم

الادب

الادب

كان العرب قبل الاسلام يطلقون لفظ « الادب » على معان منها : الدعوة الى الشيء ، يقال أدب الرجل يأدب أدباً : اذا صنع صنيعاً ودعا الناس اليه . ومنها العجب ، وكذلك يطلقونه على الفضائل النفسية ، والمكارم الخلقية ، وعليه الحديث « ادبني ربي فاحسن تأديبي » .

ثم تطور معنى هذه الكلمة بعد الاسلام فاطلقت على مجموعة من علوم العرب منها : الشعر ، والأخبار ، والأنساب والنحو . ويطلق على العالم بهذه العلوم اسم « الأديب » ، واذا اشتغل بتعليمها فهو « المؤدب » .

قال ابو منصور الجواليقي المتوفي سنة ٥٣٩ هـ : « وذلك كلام مولد ، لان هذه العلوم حدثت فى الاسلام . واشتقاقه من شيئين يجوز ان يكون ، من الادب وهو العجب ، ومن الادب مصدر قولك ادب فلان القوم يأدبهم ادباً اذا دعاهم قال طرفة :

نحن في المشتاة ندعو الجفلى (١)

لا ترى الآدب فينا ينتقر

فاذا كان من الادب الذي هو العجب فكأنه الشيء الذي يعجب منه لحسنه ، ولان صاحبه الرجل الذي يعجب منه لفضله . واذا كان من الادب الذي هو الدعاء فكأنه الشيء الذي يدعو الناس الى المحامد والفضل ، وينهاهم عن المقابح والجهل . » اه.

وهذا التطور فى معنى كلمة الأدب بدأ فى اواسط القرن الاول الهجري ، وبذلك التقى فى معنى هذه الكلمة ادب النفس وادب الدرس الذي يستأنس احدهما بالآخر ويستمد قوته منه ، فان ادب الدرس من اهم روافد ادب النفس ، كما ان ادب النفس اكبر حافز الى التوسع فى ادب الدرس .

وبهذا التطور فى معنى الادب اصبح ذا كيان خاص ، وصار محتاجاً الى تعريف يجمع بين معناه النفسي ومعناه الدرسي ، وعلى هذا قال ابو زيد الانصاري المتوفى سنة ٢١٥ هـ : « الادب يقع على كل رياضة محمودة يتخرج بها الانسان في فضيلة من الفضائل . » وهذا ـ كما تراه ـ شامل لادبي النفس والدرس ، لأن الرياضة المحمودة كما تتصل بالنفس تتصل بالدرس. ثم لما تبسطت الامة فى الحضارة: وتوسعت فى المعارف، ولاسيما

(١) الجفلي : الدعوة العامة . والنقرى الدعوة الخاصة يقال منه انتقر ينتقر اذا دعا دعوة خاصة

اللسانية منها ، اضيفت الى معنى هذه الكلمة امور لم تكن من معناها سابق العهد . من ذلك اطلاقها على اصول المنادمة وفنونها ، وعلى فنون النغم واصول الاغاني وما يتصل بها من الآلات . ولما وضع عبدالله بن طاهر المتوفي سنة ٢٨٩ هـ كتابه في اصول المنادمة وفنونها اسماه « الآداب الرفيعة » ذاهبا الى ان هذا الضرب من الادب يعتبر في القمة من سائر ضروبه ، وكذلك فعل الشاعر المشهور « كشاجم » في تسمية كتابه « ادب النديم » وقد جمع فيه ضروبا شتى من هذه الفنون .

ثم كلما ابتدع فن من الفنون اللسانية انضوى الى لواء هذه الكلمة ، وبذلك توسع معناها بتعاقب الزمن توسعا ظاهراً وبعد كل هذا التوسع اصبح حد الادب كما قال ابن خلدون : « هو حفظ اشعار العرب واخبارهم ، والاخذ من كل علم بطرف » . ولهذا لا يجوز ان يتحلى بلقب « الاديب » الا من اتقن الفنون اللسانية والم من العلوم الشرعية والكونية بما لا يجمل بالناثر والناظم جهله .

علوم الأدب :

تبين مما تقدم ان معنى لفظ الأدب تطور من حال الى حال حتى اصبح جامعاً بين المعنى الخلقي والمعنى الفني ، بمعنى أنه صار شاملاً المزايا الخلقية والمكارم النفسية ، وزمرة العلوم التي من شأنها تقويم اللسان والقلم ، وكل ما يعين على الاجادة في منثور القول ومنظومه ، وكل ما يتوسل به الى

فهم كلام العرب في القديم والحديث . وهي فنون كثيرة فلا يسوغ لاحد ان يتسم بسمة الاديب بحق الا اذا ضرب في هذه الفنون بسهم . وقد اختلفوا في تعداد هذه الفنون اختلافاً كثيراً ، لكنهم اتفقوا على اصل واحد وهو انها فنون اللسان العربي ، ومن اشهر الباحثين في ذلك: ابو القاسم الزمخشري المتوفي سنة ٥٣٨ هـ فقد ذكر انها اثنا عشر فناً وهي : « اللغة ، والصرف ، والاشتقاق ، والنحو ، والمعاني ، والبيان والبديع ، والعروض ، والقوافي » . وهذه تعتبر اصولا . « والخط ، وقرض الشعر والانشاء ، والمحاضرات ، » وهذه الاربعة تعتبر فروعاً . اما ابن الانباري المتوفي سنة ٥٧٧ هـ فقد عد منها في كتابه « طبقات الادباء » « النحو ، واللغة ، والتصريف ، والعروض ، والقوافي ، وصفة الشعر واخبار العرب وانسابهم ، والجدل في النحو ، واصول النحو » . وبهذا اسقط بعض العلوم التي ذكرها ابو القاسم الزمخشري ، وزاد علمين وهما « علم الجدل في النحو واصول النحو » . وكان الاندلسيون يطلقون علم الادب على ما يحفظ من التاريخ والنظم والنثر ومستظرفات الحكايات .

والجمهور على انه لا بد للاديب من الاطلاع على فنون شتى غير الفنون اللسانية ليتحذر من التورط في الاغاليط عندما يتطرق في شعر او نثر الى ما له مساس في تلك الفنون ، ولكي يستعين بذلك على فهم كلام المحدثين الذين اولعوا بتضمين منثورهم ومنظومهم الكثير من مسائل تلك العلوم ، فمن ذلك مثلا قول الطغرائي :

فان علاني من دوني فلا عجب
لى اسوة بانحطاط الشمس عن زحل

وقوله ايضاً :

لو كان فى شرف المأوى بلوغ منى
لم تبرح الشمس يوما دارة الحمل

وقول ابي الطيب :

وكم لظلام الليل عندك من يد
تخبر أن المانوية تكذب

فان البيتين الاول والثاني لا يفهمها الامن شدا طرفا من علم الهيئة والثالث لا يفهمه الا من الم بشيء من علم الكلام ، وامثلة هذا كثيرة ، ولا سيما فى كلام المتأخرين من الأدباء . والى هذا اشار ابن خلدون في تعريفه علم الادب بقوله : « والاخذ من كل علم بطرف . »

على انه اذا اطلقت علوم الأدب فانما يراد بها العلوم اللسانية التي لا بد من معرفتها لكل من يتصف بصفة الأديب . ونحن نلخص ذلك في الفصل التالى مع شيء من الايضاح .

اجمال وايضاح :

حدثنا التاريخ انه عندما احس اولونا بوقوع بوادر الاضطراب على السنة احداثهم ، وشعروا بدبيب اللكنة في حواضرهم وتسرب

اللحن الى احداثهم ، عز عليهم ذلك ، وخافوا انهم اذا تركوا الحبل على الغارب يستفحل امر اللحن والاضطراب في لغتهم ، ويتدفق عليها تيار العجمة فيطمس آثارها . فانصرفوا بكل ما لديهم من تفكير الى وقايتها وصيانتها وصد ما يعتورها من طواريء الخلل والاضطراب ، كيف لا وهي لغتهم ،ولغة دينهم الذي هو سر نهضتهم ، وعنوان سيادتهم .ومن ثم بادر علماؤهم الى تدوينها وضبط قواعدها وتقييد مسائلها وما برحوا ينتقلون في خدمتها من حال الى حال حتى استوت لديهم على توالى الاجيال جملة علوم اطلقوا على مجموعها « علوم العربية » او « علوم الادب » فمن هذه العلوم ما يخدم العربية المعربة من حيث ضبط مفرداتها وبيان مدلول كل لفظ من الفاظها . وهذا ما سموه « علم اللغة» او « متن اللغة » .

ومنها ما يخدمها من جهة معرفة ما يعرض لابنية كلماتها من الهيئات المختلفة، ومعرفة القواعد التي يستعان بها على معرفة تحويل الاصل الواحد الى صيغ مختلفة في الهيئات،متحدة في المادة ،للحصول على معان لا يمكن الحصول عليها الا بتلك الصيغ ، وهذا ما يسمى « علم الصرف» او « التصريف » ونريد به ما يشمل علم الاشتقاق .

ومنها ما يعرف به اصول تركيب كلمها وانطباق هذه التراكيب على المعاني المرادة منها وما يعرض لاواخر الكلمات بعد التركيب من التغير وعدمه ، وهذا « علم النحو » .

ومنها قواعد يعرف بها خواص تركيب الكلام ، واسرار بلاغته، وايراده منطبقا على مقتضى المقام والحال . وهذا هو « علم المعاني » وبعضهم يسميه « علم البلاغة » . ومنها قواعد تعين على معرفة ايراد المعنى الواحد بطرق متعددة وتعابير مختلفة في الايضاح والتبيين، وهذا هو « علم البيان » .

ومنها ما يعرف به وجوه تحسين الكلام لفظا او معنى ، وهو « علم البديع » . وبعضهم يسمى هذه العلوم الثلاثة ، او الاخيرين منها فقط « علم البيان » وبعضهم يطلق على الثلاثة « علم البديع » .

ومنها ما يبحث فيه عن طرق بيان المقصود بالكلام المنثور كتابة وعن اختلاف اساليب الكلام باختلاف الموضوعات ، وعن الاداب التي ينبغي للكاتب ان يتأدب بها ، والمعارف التي يجب ان يتحلى بها وما الى ذلك فاطلقوا على هذا « صناعة الانشاء » . وبحثوا عن كيفية تصوير الالفاظ بحروف هجائها، وسموا ذلك « علم الرسم » او « الخط » او « الكتابة »

كل هذه العلوم تخدم المنثور من الكلام ، ثم انتقلوا الى المنظوم فبحثوا فيه من وجوه عديدة ، بحثوا عن كيفية نظم الشعر وعن اداب الشاعر ، وعن نقد الفاظ الشعر ومعانيه . واطلقوا على هذه المباحث « صناعة قرض الشعر »

ثم بحثوا عن ضبط الاوزان التي نظم عليها العرب المعربون واسموا مجموع ذلك « علم العروض » .

وبحثوا عن احوال اواخر الابيات من حيث حروفها وحركاتها وسكناتها ومحاسنها وعيوبها واسموه « علم القوافي » .

ثم انتقلوا الى البحث عن كيفية ايراد المتكلم كلام غيره ، من منثور ومنظوم ، حسب المقتضيات والمناسبات في المحادثات والمساجلات واطلقوا عليه « علم المحاضرات » ، وينطوي تحت ذلك علم اخبار العرب وايامها وانسابها والتاريخ على سبيل الاجمال .

هذه اهم العلوم التي حاط بها اسلافنا لغتهم العربية . وهناك علوم اخرى تتصل بهذه او تتفرع عنها . وليس هذا محل استقصائها وانما اوردنا في هذا التمهيد المهم مما لا بد من ايراده لربط حلقات الموضوع بعضها ببعض . ولسنا بحاجة الى بيان ما لهذه العلوم من المكانة في خدمة اللغة العربية وتعزيز جانبها ، وتحويطها من ان يطغى عليها سيل العامية فيطمس آثارها ويعفي معالمها . ولهذا رأينا ان نلم بتأريخ كل علم منها على سبيل الاجمال ، وبقدر ما يتسع له المقام . فنبحث عن : نشأة العلم ، واولية تدوينه ، واطوار تدرجه في النماء والاتساع . وما تفرع عنه من الفروع ، وما اصيب به من توقف او تقلص او جمود . مع التنويه بذكر البارزين (١) من القائمين على خدمته ، والتعريف بالمهم من آثارهم فيه الى غير هذه من المباحث التي نرى ان في امكان الطالب ان يجتني منها ثمرة علمية او عملية ..

---

(١) انظر الفهرست في آخر الكتاب .

اللغة العربية

اصلها :

يرد العلماء اليوم اللغات البشرية الى ثلاثة اصول : السامي والآري والطوراني . ويعدون العربية من الاصل السامي واذا اعتبرنا اللغة البابلية الاولى التي عثر على بقيتها في اثار الدولة الحورابية - هي الاصل السامى الذي انشقت منه اللغات المنسوبة اليه - يترجح عندئذ ان العربية اقرب اخواتها الى ذلك الاصل او انها هي الاصل نفسه تقلبت فى اطوار ، وتنقلت في احوال وحدتها القرون الخالية بالصقال ، حتى وصلت الى ما وصلت اليه الآن ، ذلك لان العلماء رأوا مشابهة واضحة بين العربية الحاضرة والبابلية الاولى ، ووجدوا فى هذه كلمات وعلامات واصول وقواعد هي نفسها موجودة في العربية مع خلو سائر اخواتها السامية منها ، او هي موجودة فيها مع تحريف وتحوير ليسا بالبعيدين .

فمن وجوه المشابهة بين العربية المضرية والبابلية حركات الاعراب ، فانها فى البابلية كما هي فى العربية . ولا اثر لها في سائر اللغات السامية ومن هنا يظهر ان الاعراب عريق فى العربية ، عرفها وعرفته قبل ان يعرفها التاريخ . ومن وجوه المشابهة جمع المذكر السالم فانها في اللغتين « و ن » . وصيغ الافعال فى اللغتين متقاربة جداً . والتنوين فى البابلية ميم ساكنة . والميم

اخت النون فى العربية ، وكثيراً ماتتبادلان ،مثل عنبر تنطق عمبر . ومن امثلة الكلمات التي جاءت فى اللغتين معاً من غير ما تحريف : انف ، عنب، بلال ، صعصعة ، نسر ، شمس . الى غيرها من الكلمات التي لا تختلف شيئاً فى اللغتين .

اذا اضفنا هذا الى ما يراه المحققون من ان مهد العنصر السامي جزيرة العرب ، تبين لنا جلياً صدق ما ذهبنا اليه من ان هذه اللغة هي العمود الذي انشعبت منه سائر اللغات السامية . او لا اقل من ان العربية اقرب اخواتها كلها الى الاصل الاول المندثر على تقدير وجوده . والعلماء يعللون ذلك بكون العربية عاشت في معظم عصورها متبدية ، والبداوة حرز حريز لما تحوطه بعنايتها وتربيه فى حجرها من اللغات اذ اللغة تتلون بتلون العمران ، وتصطبغ بصبغة الحضارة التي تعيش في اكنافها ، وان العمران والحضارة من المهامه الفيح والصحارى التي تحار فيها الريح ؟

تطورها :

ليس معنى كون العربية اصلا او قريبة من الاصل ان هذه اللغة المضرية اليعربية التي نحوكها اقلامنا وتلوكها افواهنا هي لغة تلك الام القديمة على ما كانت عليه فى مجد حياتها . حفظتها لنا القرون الخالية فأدتها الينا مصونة من التحوير والتغيير ، لا وانما المقصود ان الشعب العربي الذي ما زال ولم يزل يحتفظ بجزيرته ، مهد العنصر السامي ، احتفظ بأم لغات هذا العنصر . وان الام تطورت من حال الى حال ، وتعهدتها

الاجيال بالصقال ، ولم تزل تتنازعها عوامل البسط والقبض ، والرفع والخفض ، الى ان تناولتها يد النهضة الاسلامية فجمعت شملها ، ولمت شعثها ، وزادت في ثرائها ، وبالغت في نمائها ، ثم وطدت قواعدها ، وضبطت اصولها وفروعها ، واحاطتها بعظيم رعايتها وشملتها بجليل حمايتها الى ان بلغت ما بلغت من البسطة في السلطان والكثرة في الاعوان ، واتسع صدرها للعلوم المختلفة من بين شرعية ولسانية وفلسفية وغيرها ، وبلغت يومذاك شأواً قصياً لم تصل اليه لغة من لغات العالم التي كانت تعاصرها .

فاذا انت القيت نظرة اليها، وهي زاخرة بالعلوم والفنون في العصر العباسي، تجدها اوسع رقعة منها في العصر الاموي . وهي في العصر الاموي وصدر الاسلام افسح مجالا منها فى الجاهلية يوم كانت منزلة في زوايا الجزيرة . وقس على ذلك حالها في الجاهلية الآخرة بالنسبة الى حالها في الجاهلية الاولى .

وبالجملة فان اللغة تنشط بانبساط اهلها في الحضارة والعمران وتنقبض بانقباضهم وترتقي بارتقائهم وتنخفض بانخفاضهم ، وهي بعد كائن حيّ معروض لعوامل التركيب والتحليل والتجدد والاندثار وسائر العوامل التي تخضع لها الاحياء من هذا القبيل .

واهم علائم الحياة في اللغة تحكم عاملي التجدد والدثور في بنيتها كالانسان فى عنفوان شبابه ، فتستغني عن الفاظ وتراكيب وتضم الى

نفسها الفاظا وتراكيب حسبما تقضي به عوامل النشوء والارتقاء ، او كما يقولون حسبما يتطلبه قانون الانتخاب الطبيعي ومن هذا نعلم ان العربية اليوم غيرها بالامس .

عوامل تهذيبها

وليس في مقدور الباحث اليوم أن يحيط بكنه ما تقلبت عليه هذه اللغة من اطوار التهذيب وما مرت به من عوامل النماء والتوسيع ، ولكن يمكن ان يقال على سبيل الاجمال . فان اطوار تهذيبها وعوامل نمائها وتوسيعها تابعة لتطور احوال المتكلمين بها . فاذا علمنا مثلا ان دولة حمورابي التى وصلت الى ما وصلت اليه من رفعة الشأن ، والتبسط فى العمران ـ عربية النجار ، نعلم عند ذاك ان هذه اللغة نالت على عهد هذه الدولة قسطها من التهذيب والنماء يقدران بمقدار ما احرزته تلك الدولة من سعة العمران ، وقوة السلطان .

ويقال مثل ذلك فى الدول العربية الاخرى التي ظهرت لمع من اخبارها من خلال غبار العصور الخالية ، مثل دولة العماليق في مصر المعروفة عند اليونان باسم « الهيكسوس » ، وعند قدماء المصريين باسم « الشاسو » اي الرعاة او البدو ، ومثل دولة معين فى اليمن وسائر الدول اليمانية التي تبسطت فى الفتوح وتوسعت في الحضارة ..

ومن هذا يتبين ان معرفة اطوار التهذيب لهذه اللغة تستمد من

تاريخ الامة العربية فلنترك هذا الجانب للباحث في تاريخ العرب . على انه لا يفوتنا ان اطوار التهذيب ليست قاصرة على ما تتقلب عليه الامة العربية من الاحوال السياسية . بل هناك تطورات لها شأنها خارجة عن هذه التقلبات ، منها : اتصال العرب بغيرهم بالمجاورة والمتاجرة وما الى ذلك . ومنها انتشار القبائل في انحاء الجزيرة وانفراد كل قبيلة بمحاسن من القول يغبطه عليها القبيل الآخر . ومنها الاسواق المشهورة ، والمجامع المذكورة مثل عكاظ ومجنة وذي المجاز . ومنها الحج وغير ذلك

هذا امر تطورها في الجاهلية ، واما في الاسلام فلأطوار التهذيب تاريخ واضح المنهج ، سنلم به في غير هذا الموطن ان شاء الله تعالى .

عوامل نمائها وتوسعها

اما عوامل النماء في اللغة فكثيرة اهمها : الاشتقاق ، والنحت ، والقلب ، والابدال ، والاشتراك ، والتضاد ، والترادف ، والمجاز ، والكناية ، والاصلاح ، والتوليد ، والتعريب .

واذا انعمت النظر في هذه العوامل تجدها على قسمين ، قسم منها يرجع الى بنية اللغة مثل الاشتقاق ، وقسم تستمده اللغة من الخارج مثل التعريب . وهذا اشبه شيء بكيفية نماء الاجسام الحية ، فان وسائل نمائها على درجتين الاولى تمثيل الاغذية التي تستمدها من الخارج ، والثانية تحصل بتكاثر الخلايا بانقسام الواحدة منها الى اثنتين ، ثم انقسام كل من الاثنتين وهكذا ..

اولا - الاشتقاق

يقول الصرفيون : ان الاشتقاق أخذ صيغة من اخرى مع اتفاقهما في اصل المادة والمعنى ، ليدل بالثانية على المعنى الاصلي مع زيادة مفيدة لاجلها اختلفت حروفهما او حركاتها او هما معا . مثل كتب من الكتابة وقرأ من القراءة ، وبعبارة اخرى ، هو رد لفظ الى آخر لمناسبة بينهما في المعنى والحروف الاصلية .

وقد ذكروا له نوعين : الاول الاشتقاق الاصغر وهو المشهور بين علماء العربية واذا اطلق الاشتقاق ينصرف اليه . والثاني الاشتقاق الاكبر ، واهم مميزاته عن سابقه انه لا يشترط فيه الترتيب في الحروف بين المشتق والمشتق منه ..

والمذهب المعول عليه بين علماء العربية ان الكلم بعضه مشتق وبعضه غير مشتق . وذهبت طائفة من المتأخرين الى ان الكلم كله مشتق . وهذا مذهب غير مفهوم لانه لو كانت كل لفظة نوعاً من غيرها للزم الا يكون هناك اصل وهذا محال ، اللهم الا اذا قالوا : ان المراد بذلك ان الكلمة لا تخلو من احد امرين اما ان تكون مشتقة او مشتقا منها . فحينئذ يمكن ان يذكر قولهم هذا مع الاقوال . ويحتمل المناقشة والجدال ، وتذهب طائفة ثالثة الى انه ليس هناك اشتقاق ما وان الالفاظ كلها اصل . وهو قول بعيد عن التحقيق .

ثم ان التغييرات بين المشتق والمشتق منه فى الاشتقاق الاصغر في وجوه :

الاول — زيادة حركة في المشتق ، مثل علم من العلم .

الثاني — زيادة حرف فيه ،مثل طالب من الطلب .

الثالث — زيادة حرف وحركة معاً ،مثل ضارب من الضرب .

الرابع — نقص حركة منه ،كالفرس من الفرس .

الخامس — نقص حرف منه مثل ثبت من الثبات .

السادس — نقص حرف وحركة معاً مثلا نزا من النزوان

السابع — نقص حركة وزيادة حرف ،مثل غضبي من الغضب .

الثامن — زيادة حركة ونقص حرف ،مثل حرم من الحرمان .

التاسع — زيادة حركة وحرف ونقصهما ،مثل استنوق من الناقة .

العاشر — تغاير الحركتين ،مثل بطر من البطر .

الحادي عشر — نقص حركة وزيادة اخرى وحرف ، مثل أضرب من الضرب .

الثاني عشر — نقص حرف وزيادة آخر مثل راضع من الرضاعة .

الثالث عشر — نقص حرف وزيادة آخر وحركة ، مثل خاف من الخوف .

الرابع عشر — نقص حركة وحرف وزيادة حركة فقط ، مثل عدة من الوعد فان فيه نقص الواو وحركتها ، وكسر العين بعد ان كانت ساكنة

الخامس عشر – نقص حركة وحرف وزيادة حرف مثل فاخر من الفخار .

وانما اشرنا الى هذه التغيرات المتنوعة لتدل على ما فى هذا الباب من السعة . وانه من اكبر الابواب التي تنهض باللغة وتمدها بمعين لا ينضب .

اما الاشتقاق الاكبر فيشترط فيه حفظ اصل المادة دون تقلبات الهيئة . مثل تقليب مادة (ق و ل) على وجوهها الستة المختلفة : ولق ، لقو ، .. الخ . وهي فى كل هذه التصاريف تدل على الخفة والسرعة . قال ابو حيان النحوي: وهذا مما ابتدعه الامام ابو الفتح ابن جنى ،وكان شيخه ابو علي الفارسي يأنس به في بعض المواضع .

والذي يتقرى كلم اللغة بامعان نظر يجد ان لمعظم موادها اصلا ترجع اليه اكثر كلمات ذلك الاصل ان لم نقل كلها . خذ على ذلك مادة (ف ل) وما يثنها تجد الجميع تدور حول معنى الشق والفتح ، مثل : فلح ، فلج ، فلم ، فلق ، فلذ ، فلي . ومثل ذلك مادة (ق ط) وما يثنها تقول : قط ، قدّ ، قطع ، قطف ، قطر ، قطن ... الخ وكلها بمعنى الانفصال .

واول من فتح باب هذا النوع من الاشتقاق ابو الفتح ايضاً وللعلامة الزمخشري ولوع فيه ، تجد ذلك كثيراً في كشافه ، ويذهب

بعض اللغويين الى ان هذا الاصل جار في كل تراكيب المواد اللغوية ولو بضرب من التأويل ولو قليلا ، وهذا مذهب لا يخلو من المبالغة ، اذ ان كثيراً من مفردات اللغة دخل عليها من لغات اخرى ثم صار مع الزمان كأنه منها في الصميم . ولا يمكن في حال من الاحوال ان يرد الى اصل من اصولها . وللغفلة عن هذه الناحية نجد الكثير من اللغويين يتمحلون لبعض الكلمات اشتقاقات ، اقل ما يقال فيها انها من المضحكات. حكي عن بعضهم انه سئل عن اشتقاق الجرجير - نوع من النبات - فقال سمي بذلك لان الريح تجرجره اي تجره ، وسئل عن اشتقاق الجرة فقال لانها تجر على الارض . ويقول انما سمي الثور ثوراً لانه يثير الارض للحرث . الى امثال هذا الهذيان والاعجب ان بعضهم يتكلف للاعلام العجيبة ضروبا من الاشتقاق تتقاطر السخافة من اطرافها . ولا تعدم في هذا العصر اناسا من هذا القبيل . فقد بلغنا ان بعضهم سئل عن البنجرة - وهي يستعملها الاتراك للنافذة - فقال انها من بنجر الرجل اذا فتح عينيه لان النافذة تكون مفتوحة ، فاقرأ واعجب .

ولمكانة هذا الباب في علم العربية افردوه بالتأليف وحاطوه بالعناية الواسعة . وممن الف فيه الأصمعي ، ومحمد بن المستنير المعروف بقطرب ، وابو الحسن الاخفش ، وابو نصر الباهلي ، والمفضل بن سلمة ، وابن دريد ، والزجاج ، وابن السراج ، والرماني ، وابن النحاس ، وابن خالويه وغيرهم

هذا زيادة على ما جاء به الصرفيون في كتبهم من التحقيق والتمحيص . واكبرهم عناية في ذلك امام الصرفيين وسندهم ابو الفتح بن جنى الموصلي . وقد الف فيه بعض المعاصرين من علماء الشام كتاباً نفيساً. والعصر الذي نحن فيه يتطلب من هذا الباب فضل توسع ، وبذل عناية ، لان المعاني الجديدة المتدفقة ، والمبدعات العصرية المتكاثرة، تتطلب من الالفاظ ما تعيا به مفردات اللغة اذا لم تفزع الى هذا الباب فتوسع منه ما ضيقه بعض المتشددين ثم تستمد منه العون فتجد منه خير معين ، واقوى نصير .

ثم ان هذا الباب اوسع من ان يحاط به فى مثل هذه العجالة ولكنا نظرنا اليه من بعض نواحيه التي تتعلق بموضوعنا ، وتركنا التفاصيل للكتب الموضوعة فيه .

النحت

قد يعمد العربي الى كلمتين فأكثر ، فيقتطع منهما حرفاً ويؤلف منها كلمة جديدة يدل بها على مجموع المركب الذي اقتطعت منه ، او على معنى آخر قريب من معنى ما اقتطعت منه. فيقول في النسبة الى «عبد شمس» : عبشمي مثلاً . كما يقول : بَسملَ فلان يريد انه قال : بسم الله الرحمن الرحيم . ويسمون العجوز الصخابة الكثيرة الهذر : صهصلق ، اخذاً من : صهلَ ، وصلق . بمعنى صاتَ صوتاً شديداً .

وقد اطلق علماء العربية على هذا النوع من العمل اللغوي النحت

لان العربي ينحت من الكلمتين فاكثر كلمة ، وفى هذا العمل ما فيه من الفوائد مما يرمي الى امداد اللغة بالثراء . زيادة على ما فيه من الاختصار يكون الكلمة الجديدة تدل على جملة من القول . فقولنا : بسمل مثلا اخصر من قولنا : قال بسم الله الرحمن الرحيم .

ولم يضع له الأوائل قواعد واضحة ، ولذلك اعتبره بعض النحاة سماعياً ، وقل الاعتماد عليه عند المتأخرين من العلماء على ما يظهر من كلام ابن مالك فى تسهيله انه يعتبر هذا الباب قياسيا فى باب النسبة ، ولكن ابا حيان انكر عليه ذلك ، وقال ان هذا الحكم لا يطرد ، وانما يقال منه ما قالته العرب فقط ، والمحفوظ منه عند ابى حيان : عبشمى في النسبة الى عبد شمس ، وعبدرى فى عبد الدار ، ومرقس في امرىء القيس وعبقسي فى عبد القيس ، وتيملى فى تيم اللات . هذا ما اورده ابو حيان من المسموع في باب النسبة من المنحوت . ومعلوم ان النحت في غير باب النسبة اكثر منه في بابها فقد قالوا : هلل واكثر من الهيللة ، اذا قال لا إله الا الله . وحوقل واكثر من الحوقلة وحوقل بعضهم ان يقال حوقل ، وعده من الغلط وليس بشيء ، لانه جرى على السنة كبار اللغويين . ومن حفظ حجة على من لا يحفظ . واكثر من الحوقلة اذا قال لا حول ولا قوة الا بالله . ومنه : حمدل حمدلة . وحسبل حسبلة . قال : حسبي الله . وحيعل حيعلة قال : حيّ على الصلاة ، حيّ على الفلاح . وحيعل بمعنى قال حيّ على كذا .

قال الشاعر :

اقول لها ودمع العين جار الم يحزنك حيعلة المنادي

وجعفد جعفدة ، قال : جعلت فداك . ودمعز دمعزة ، قال : دام عزك . وطابق طلبقة ، قال : اطال الله بقاك ومشكن مشكنة ، قال : ما شاء الله كان . وسمعل سمعلة ، قال سمع الله لمن حمده ، وكبتع كبتعة ، قال : كبت الله عدوك ، وسملع سملعة ، قال : السلام عليكم . وقالوا : حبرمَ القدر اذا وضع فيها حب الرمان ، وامثلة ذلك كثيرة ، حتى ذهب ابن فارس وجماعة من المحققين الى ان الاسماء الزائدة على ثلاثة احرف اكثرها منحوت ، مثل قول العرب : رجل ضبطر اي شديد ، او ضخم مكتنز اللحم ، منحوت من : ضبط وضبر ، بمعنى اشتد خلقه وتوثق ، قال : ومنه اسد صلدم ، ورجل صلدم اي صلب ، منحوت من صلد وصدم ، وبعثر منحوت من : بعث واثير ، وبحثر من بحث واثار وبرى الخليل ان النحت يجيءُ في الحروف ، قال : اصل « لن » لا ان خففت فصارت لن ، وقد حدث لها بالتركيب معنى جديد في الجملة..

وللنحت يد سموح في امداد اللغة بالثروة ولا سيما لغة العلم ، ولكن بعض المتأخرين من النحويين حالوا بين اهل العلم وبينه بقولهم انه باب سماعي ، وبذلك اوصدوه في وجوه القوم على حين الحاجة ماسة الى فتحه وتوسيعه بقدر المستطاع لمعالجة الفاقة اللغوية تجاه المعاني العلمية التي فاض فيضها ، وعبَّ تيارها في هذا العصر .

ثم مالنا وللمتشددين من متأخري النحاة الذين كلما انفتح امام اللغة باب تتنفس منه هرعوا اليه وسدوه على زعم انهم يخدمونها بالمحافظة عليها وسدّ مسالك العجمة عنها ، وما اشبه عملهم هذا بعمل تلك الصينية التي تضع قدميها فى زوجى خف من الحديد للمحافظة على غضارتها وجمالهـا ، ولم تدر انه سوف يأتي عليها زمن تفقد فيه هاتان القدمان قوتهما وتعجزان عن القيام بوظائفهما ، وكذلك شأن اللغة عند هذا الفريق من القوم يوصدون عليها ابواب القياس ، ويأخذون عليها مجامع الطرق على زعم انهم يحرسونها ويحافظون على نظارتها ، ويبقون على غضارتها ، وفاتهم انهم بهذا الصنيع يعملون على اماتتها باماتة عناصر الحياة فيها ، وابعاد عوامل النماء عنها ، وانهم لا يزالون يضيقون عليها السبل حتى يقول المرجفون والذين فى قلوبهم مرض : انها اصبحت لغة مصابة بفقر الدم ، وذبول الخليات ، ومنيت بسائر اعراض الهرم فصارت عاجزة عن ان يتسع صدرها للمعاني الجديدة المتكاثرة والعلوم العصرية المتدفقة بالمصطلحات ، وبذلك يسجلون عليها عجزها وهي غير عاجزة وفقرها وهي غير فقيرة ، وانما العجز في نفوس الذين يزعمون انهم قائمون على خدمتها وهم فى وأدها مشتغلون ، والفقر فى تفكيرهم وهم لا يعلمون .

القلب

هو تقديم بعض حروف الكلمة على بعض . وبذلك تتولد كلمة

جديدة تتفق مع اصلها في مادة الحروف ، وتختلف عنها في الترتيب مثل : صاعقة وصاقعة ، وخطيب مصقع ومصقع ، ويئس وايس ، وعاث في الارض وعثا فيها ، واثول والوث ، ونزغ الشيطان بينهم ونغز ، وهو يتسكع ويتكسع اذا تحير ، ومرزاب السطح ومزرابه ، وكلام وحشي وحوشي ، وهم الاوباش والاوشاب ، اي الاخلاط من الناس .

وامثلة هذا كثيرة ذكر منها الجلال السيوطي في المزهر جملة صالحة ، وقد الف فيه ابن السكيت كتاباً خاصاً . وعقد له ابن دريد في جمهرته باباً على حدته ، وكذلك فعل ابو عبيدة في كتاب الغريب المصنف . وليس في هذا الباب كبير فائدة من حيث الثروة اللغوية الا من ناحية الالفاظ . اما المعاني فانها لا تتكثر به اذ المقلوب والمقلوب عنه يدلان على معنى واحد . فان جذب وجبذ يدلان على معنى واحد وان تعددا لفظا .

ويذهب البصريون من النحويين الى ان معظم ما يسميه اللغويون قلبا ليس به ، وانما هو من باب تعدد اللغات فجبذ عندهم مثلا لغة قبيلة وجذب لغة قبيلة اخرى ، وعلى هذا يكون الكثير مما يظنون ان القلب قد دخله ليس بذلك ولا يتحقق القلب عند هؤلاء الا اذا تم لاحدى اللفظتين من التصاريف ما لم يتم للاخرى . فعندئذ يعتبرون اللفظة ذات التصريف اصلا ، وذات التصريف الناقص فرعا مثل :

يئس وايس فانهم لما وجدوا للاولى منها مصدراً وهو اليأس ولم يجدوه للثانية ، قالوا ان الاولى اصل والثانية فرع . وليس هناك فائدة مهمة من وراء هذا الخلاف الا من وجهة واحدة وهي انه : هل كانت القبيلة الواحدة من العرب تستعمل اللفظين معا ، او كانت تستعمل لفظا واحداً منهما ، وللفظ الثاني تستعمله قبيلة اخرى سيأتي في باب الترادف ما يأتي شيئا من النور على هذه المسألة ، لان اللفظين في هذا الباب لا يخرجان عن كونهما مترادفين سواء قلنا بالقلب او بتعدد اللغات .

الابدال

عرفنا ان القلب نقل حرف من موضعه الى موضع آخر من الكلمة نفسها فتتولد من ذلك كلمة اخرى جديدة . وبعبارة اخرى تصير الكلمة الواحدة كلمتين .

اما الابدال فهو ان ترفع حرفاً وتضع غيره موضعه . فتتولد من ذلك كلمة اخرى تدل على عين ما تدل عليه الاولى من المعنى فهو اخو القلب من ناحية اثره في الثروة اللفظية للغة دون المعنوية منها .

وقد اختلفوا فيه كما اختلفوا في القلب فقال فريق المبدل والمبدل منه يقعان في لغة القبيلة الواحدة . فالقبيلة التي تقول : « صراط » هي نفسها تقول « سراط » . ويذهب المحققون الى ان العرب لا تتعمد

تعويض حرف من حرف، وانما هي لغات مختلفة لفظا، لقبائل مختلفة تدل على معاني متفقة، بأن تتقارب اللفظتان في لغتين لمعنى واحد حتى انهما لا يختلفان الا في حرف واحد. وعلى هذا لا تتكلم القبيلة الواحدة بكلمة طوراً بالصاد وطوراً بالسين انما يقول هذا قوم وذاك قوم آخرون.

ومن امثلة هذا الباب قولهم: ضربة لازب ولازم، وتلمثم وتلمذم، والقطر والقتر للناحية، وجمعها: اقطار واقتار. والحثالة والحفالة للردئ من كل شيء، والثوم والفوم وهو الحنطة. والاثام والالام. وبعثر وبحثر ومد الحرف ومطه، والثري والبري ... الخ والامثلة كثيرة تكاد تفوت الحصر، حتى قال بعض المحققين قلما نجد حرفا الا وقد جاء فيه البدل ولو نادراً. يريد به البدل السماعي. اما ما يذكره الصرفيون من ان حروف الابدال تسعة (ا، ت، د، ط، م، ه، و، ي،) فانهم يريدون به الابدال القياسي وهو مفصل في كتبهم وليس من موضوعنا الافاضة فيه. وللابدال السماعي دواعي كثيرة منها سهولة اللفظ باحد الحرفين المبدل او المبدل منه ومنها - وهو اهمها - البيئة فان لها الاثر البين في تنشئة الالسن، ولهذا نجد القبائل اليمانية مثلا تختلف في كثير من الألفاظ عن القبائل الحجازية، فان هؤلاء ينطقون السين سينا فيقولون الناس مثلاً واولئك يقلبونها تاء فيقولون النات، وهؤلاء يقولون: لبيك وسعديك مثلا، واولئك ليش وسعديش بقلب الكاف شينا وهي شنشنتهم:

وسنعرض لهذا البحث في باب اختلاف لغات القبائل ونمنحه فضل ايضاح ان شاء الله تعالى .

الترادف

من الالفاظ ما يؤدي معنى واحداً كرجل، وفرس، وبغداد، ومكة مثلا . ومنها ما يؤدي اكثر من معنى واحد على وجه الحقيقة مثل خال فانه موضوع لاخي الام وللشامة المعروفة وللسحاب وللمتكبر .. الخ . ومنها ما هو بالعكس ، معنى واحد يوضع للدلالة عليه اكثر من لفظ واحد . فانهم مثلاً وضعوا الحنطة ، والقمح ، والبر ، والفوم ، والثوم ، للحبّ المعروف . ووضعوا للسيف خمسين اسماً وللأسد مئات، واكثر منها للجمل . وامثلة هذا الباب كثيرة ، وقد افرده بالتأليف جماعة منهم مجد الدين الفيروزبادي صاحب القاموس ، وضع فيه كتاباً اسماه « الروض المسلوف في ماله اسمان من المألوف » وبعضهم افرد بالتأليف اسماء بعض المعاني . فالف ابن خالويه كتاباً فى اسماء الحية ، والف الفيروزبادي كتاباً في اسماء العسل . وافرد السيوطي كتاباً فى اسماء الاسد . ومن الناس مَن ينكر المترادف فى اللغة العربية ، ويزعم ان كل ما يظن انه من المترادف انما هو من قبيل المتغايرات التي تختلف باختلاف الصفات ومن ذهب الى هذا ابو الحسين احمد بن فارس ، قال في كتابه: فقه اللغة المعروف بالصاحبي « يسمى الشيء الواحد بالاسماء المختلفة نحو

السيف ، والمهند ،والحسام ، والذي نقوله في هذا: ان الاسم واحد وهو السيف وما بعده من الالقاب صفات ، ومذهبنا ان كل صفة معناها غير معنى الاخرى »

وهو مذهب ثعلب وجماعة من محققي اللغويين.وقد حكى بعضهم ان جماعة من اهل الفضل فيهم ابن خالويه وابو علي الفارسي حضروا فى مجلس سيف الدولة فى حلب فقال ابن خالوية : اني احفظ للسيف خمسين اسماً ، فتبسم ابو علي الفارسي وقال : ما احفظ له الا اسماً واحداً وهو السيف قال ابن خالويه : فاين المهند والصارم و كذا و كذا .. فقال ابو علي : هذه صفات و كأن الشيخ لا يفرق بين الاسم والصفة .

ومن الواضح ان الترادف خلاف الاصل لانه طريق الى الاسراف في الالفاظ وهو خلاف المعقول ، لأن الالفاظ محصورة والمعاني غير محصورة . إذ الالفاظ مركبة من الحروف الهجائية على اوضاع معينة فلا بد ان تقف عند رقم معين . اما المعاني فهي بنات المحسوس ونتاج المعقول فلا يعقل ان تقف عند حدّ..

ومن ثم ينبغي ان يكون الاصل الاقتصاد فى الالفاظ بقدر الطاقة وعلى هذا ينبغي الا نقول بالترادف الا عندما يتعذر الحمل على غيره . والحق ان معظم الالفاظ التي يقال في بادئ الرأي انها متوطئة على معنى واحد ـ هي فى الواقع ليست كذلك . فاذا انت انعمت النظر فيها تبين لك ان كل لفظ منها يدل على معنى يختلف ولو قليلا عما يدل عليه اللفظ

الآخر . فاذا اخذنا لفظى الشك والريب مثلا نجد الجمهور يفسرون احدهما بالآخر، فيقولون في تفسير « لا ريب فيه» لاشك . مع ان بين معنييهما اختلافا بينا . فالشك يدل على مجرد التردد بين امرين لا يترجح احدهما على الآخر ، مع ان الريب يدل على القلق والاضطراب في النفس متولدين من التردد الذي يدل عليه الشك، فالريب شك مصحوب بقلق واضطراب ، ومن ثم يقال : هو في شك مريب اي مقلق مزعج، ولا يقال هو في ريب مشكك، وعلى هذا لا بدّ ان يسبق الريب بالشك، ولا عكس . ومثل ذلك : الظنّ والوهم ، فان الفكر اذا تردد بين امرين وكان احدهما ارجح من الآخر فالجانب الراجح ظن والمرجوح وهم (بسكون الهاء، اما المفتوح الهاء فهو الخطأ) وكذلك اذا اخذنا الشرق، والغصص ، والشجى مثلا : نجد الاول يدل على انسداد مجرى التنفس بالماء وكل مائع ، والثاني يدل على انسداده بالطعام ، والثالث بالعظم وكل صلب ، وبعض اللغويين يفسر بعض هذه الالفاظ ببعض .

ومثل هذا : جلس وقعد ، يظن أنهما مترادفان ، مع ان اللفظة الاولى لا تطلق على الهيئة المخصوصة الا اذا كانت عقب الاضطجاع او الاستلقاء ونحوهما ، والثانية انما تطلق على تلك الهيئة اذا كانت عقب الوقوف ونحوه . فيقال : كان مضطجعاً فجلس ، وكان واقفاً فقعد . فالجلوس يكون بعد حالة هي دونه ، والقعود بعد حالة هي فوقه . واصل مادة (ج ل س) تدل على الارتفاع ، ومنه قيل للذي ينزل نجداً جالس،

ومادة (ق ع د) تدل على الانخفاض ، ومنه قاعدة البناء لأساسه .

الاشتراك

من الالفاظ ما هو موضوع بازاء معنى واحد مثل : بغداد لهذه المدينة ، ومنها ما يدل على اكثر من معنى . وهذا اما ان يكون في الاصل موضوعا لمعنى واحد ثم استعمل في غيره لعلاقة بين المعنيين مع قرينة تمنع من ارادة المعنى الاصلي ، كلفظ الوطيس فانه موضوع فى الاصل للتنور ، ويطلق على شدة بأس الحرب لما بينهما من المناسبة الظاهرة ، فيقال : حمى الوطيس ، او حمى وطيس الحرب ، وهو في المعنى الاول حقيقة ، وفي الثاني مجاز . وقد يشتهر اللفظ في معناه المجازي بحيث يتبادر الى الذهن بمجرد اطلاقه مجرداً عن القرائن . فان كان الاشتهار عند اهل الشرع سمى حقيقة شرعية او منقولا شرعيا ، مثل الصلاة ، والزكاة ، والوضوء ، والتيمم . وان كان الاشتهار عند اهل العلوم سمى حقيقة اصطلاحية او منقولا اصطلاحيا كالضرب والطرح ، والقائمة والحادة عند الرياضيين ، والتمييز والمبتدأ والخبر والضمة والفتحة والكسرة والسكون عند علماء العربية ، وان كان الاشتهار في العرف العامة سمى حقيقة عرفية او منقولا عرفيا ، كالحيوان للبهيمة خاصة مع انه فى الاصل اعم من البهائم وغيرها . واما ان يكون اللفظ فى الاصل موضوعا لكل واحد من تلك المعانى بوضع مستقل فهو المشترك .

فالمشترك اذاً هو اللفظ الموضوع لمعنيين فاكثر باوضاع متعددة ، كلفظ الخال فانه موضوع لأخ الام وللشامة وللسحاب . وامثلة المشترك كثيرة جداً، فقد ذكروا لبعض الالفاظ معنيين مثل : العم لأخ الاب وللجمع الكثير ، وذكروا لبعضها ثلاثة معان مثل : النوى لمعناه المعروف وللنية وللبعد . ولبعضها اربع معان مثل : الروبة « الروبة « من غير همز » لخميرة اللبن ، وجمام ماء الفحل ، وما يلزم به المرء من الاعمال ، وقطعة من الليل . وذكروا لبعض الالفاظ خمسة معان الى العشرة بل الى العشرات مثل : الخال والعين حتى ان كثيراً من الشعراء نظموا القصائد الخاليات والعينيات ، بان جعلوا قوافيها لفظ الخال او العين من اول القصيدة الى آخرها .

وانكر بعضهم ورود المشترك في اللغة قائلا ان اللغة انما وضعت للابانة عن المعاني ، فلو جاز وضع لفظ واحد للدلالة على معنيين مختلفين فاكثر لما كان ذلك ابانة بل تعمية وتغطية .

ولا شك في ورود المشترك ، واما ما ذكره المعترض فلا يخرج عن كونه عيبا من عيوب الاشتراك وهنة من هنواته . ولكن لا يلزم من كون الشيء معيبا ان يكون مفقوداً فلو هب اعصار فاهلك الزرع والضرع فهل يجمل بنا ان ننكر وجود الاعصار لانه مضر في ذاته !؟ هذا ما لا يقوله عاقل .. على ان وقوع المشترك يكاد يكون طبيعيا في اللغة ، وذلك لأن الالفاظ مركبة من الحروف وهي محدودة والمعاني

كثيرة ولا تزال تتجدد ولا تتناهي ، فالاقتصاد في استعمال الالفاظ يقضي بجعل اللفظ موضوعا بازاء اكثر من معنى والتمييز يكون بالقرائن الحالية او المقالية . فمن قال مثلا : في خد فلان خال لا يشتبه بانه الشامة، واذا اشار الى رجل قائلا : هذا خالي ، فلا شك بانه اخو امه .

واسباب الاشتراك كثيرة ، منها : اختلاف الوضع باختلاف الواضعين كأن يضع بعض الناس لفظا بازاء معنى ، ثم يضعه الآخرون بازاء معني آخر ويشتهر ذلك اللفظ بذينك المعنيين عند كلا القبيلين . ثم بتطاول الازمان ينسى اختلاف الواضعين . ومنها كثرة استعمال المجاز حتى يشتهر ويصبح كأنه حقيقة في احدهما ومجازاً في الآخر ، مثل العين لربيئة القوم ،فانه في الاصل مجاز من اطلاق الجزء وارادة الكل ، ولكنه اشتهر في الاستعمال حتى اصبح اللغويون يعدونه في جملة معاني العين المشتركة . وعلى ذلك كثير من الالفاظ التي تعد اليوم في زمرة المشترك . وهي في الاصل حقيقة ومجاز . وهذا هو السر في توهم بعض الناس لهذا العهد بان عرب الجاهلية تقلل من استعمال المجاز في شعرها ونثرها . والواقع ان اولئك العرب كغيرهم كانوا يكثرون من استعمال المجاز ولكنه لما اشتهرت تلك المعاني المجازية وتطاول عليها العمر اصبحت تتراءى لنا اليوم كأنها حقائق . فاذ اعوزتك الامثلة الكثيرة في هذا الشأن فارجع الى معاجم اللغة ودواوين الادب تجد الشيء الكثير من

طلبتك . وعليك بأساس البلاغة للزمخشري فانه اعذب مورد في هذا الباب .

الاضداد

قد يدل اللفظ المشترك على معنيين فاكثر يمكن اجتماعهما او اجتماعهما في شيء واحد ، وقد لا يمكن هذا الاجتماع فيدل اللفظ الواحد على الشيء وعلى ضده كالجون للأسود والابيض . ويطلق عليه اهل اللغة اسم الضد . ويقال فيه ما يقال في المشترك من الورود وعدمه . واسباب ذلك لانه فرع من فروعه لا يختلف عنه الا من جهة انه يدل على الشيء وضده فقط . وامثلته كثيرة . وقد افرده جماعة بالتأليف منهم : المبرد فى كتاب « ما اتفق لفظه واختلف معناه » ومنهم التوزي ومنهم ابو البركات ابن الانباري وابن الدهان والصغاني ،ومنهم ابو بكر ابن الانباري وكتابه مطبوع متداول ، وقد ذكر فى صدره السر في ورود اسماء الاضداد في اللغة ، فارجع اليه ان شئت .

المجاز

لا يختلف اثنان بان المجاز من اهم عوامل التوسع فى مناحي الاستعمال اللغوي . فاذا اشتريت فرسا وقلت اشتريت بحراً مثلا اي انه ينصب في الجرى انصباب ماء البحر كأنك تكون قد زدت فى اسمائه لفظا كما انك زدت فى مدلول لفظة « بحر » معنى جديداً وهو

الفرس القوي ، السريع الجرى . ومثل هذا اطلاق الرحمة على الجنة في قوله تعالى : « ففي رحمة الله هم خالدون . » فانك قد زدت فى اسماء المكان لفظا كما انك زدت فى مدلول الرحمة معنى جديداً

وقد علمنا فى باب الترادف ان كثيراً من المجازات تصبح بسبب كثرة الاستعمال حقائق . واذا انت تأملت المستعمل من الكلام تجد للمجاز فيه حظا ليس بالقليل حتى ذهب ابو الفتح ابن جنى ومن تبعه الى ان اكثر اللغة من هذا القبيل . وقد عقد لذلك بابا فى كتاب الخصائص اورد فيه الكثير من الامثلة ، ودعم مدعاه بالمعقول من الادلة ..

ويعتقد ابو الفتح ان المجاز انما يقع ويعدل اليه عن الحقيقة لمعان ثلاثة وهي : الاتساع والتوكيد والتشبيه . فاستعمال البحر فى الفرس مثلا فيه اتساع كما ذكرنا وفيه تشبيه لان جريه يجري فى الكثرة مجرى ماء البحر ، وفيه توكيد لانه شبه العرض وهو الجرى بالجوهر وهو البحر ، والجوهر أثبت فى النفوس من العرض . والمجاز زيادة على كونه عاملا من عوامل اتساع اللغة وهو حلية من اخر حلاها تزينت به بعد ان ضرب العرب في النهضة الاجتماعية بسهم .

والحق ان المجاز ثالث ثلاثة في توسيع رقعة اللغة ، فكان عمدة القوم في بادئ الامر على الارتجال ثم لما توفر لديهم طائفة من الالفاظ المرتجلة ركنوا الى الاخذ بالاشتقاق والتوسل باساليبه المختلفة . وعندما يعوزهم

الاشتقاق يعمدون الى المجاز .

ويقارب هذه العوامل الثلاثة في خدمة التوسع التعريب والكناية اخت المجاز . يقال فيها ما يقال فيه فلا حاجة الى التكرار .

الالفاظ الاسلامية

جاء الاسلام والامية فاشية في العرب ، والجهل ضارب بجرانه فيما بينهم فامدهم بما لا عهد لهم به من العلم الكثير ، والانقلاب العظيم فتكاثرت المصطلحات الجديدة وعب عبابها فتمطت اللغة عند ذاك وفتحت صدرها الرحب لضم تلك المصطلحات بمعانيها الجديدة ولم تضق ذرعاً بتحمل ما حملته في هذا السبيل بل نهضت بكل ذاك نهوض القادر الامين بعد ان كان العربي لا يفقه من شؤون دينه ودنياه الا النزر البسيط جاءه القرآن والسنة بالفيض الفائض منهما . ثم جاءت الفتوح واتسع سلطان القوم فازدحمت اللغة بالمصطلحات الكثيرة التي اقتضتها الاوضاع السياسية والادارية والتطورات الاقتصادية .والاجتماعية ثم لم تزل الاحداث تتوالى والاحكام تتجدد وتتكاثر بتجدد الاحداث وتكاثرها الى ان استوى لدى القوم من المصطلحات الشيء الكثير حتى انهم افردوها بالتأليف ، وكثرت فيها التصانيف ..

وليس معنى هذا ان تلك المصطلحات كلها ارتجلت ارتجالاً وابتدعت ابتداءً وانما جلها معاني جديدة نقلت اليها الفاظ من اللغة

كانت مستعملة في معاني اخرى تتناسب مع المعاني الشرعية ، وربما عربت الشريعة بعض الالفاظ بمعانيها ومن امثلة المصطلحات الاسلامية : الصلاة واصلها في لغتهم الدعاء والترحم ثم نقلها الشرع الى المعنى المعروف للمناسبة الظاهرة . ومن ذلك الركوع ، واصله الخضوع فنقله الشرع الى الهيئة المخصوصة ، ومثله السجود فان اصله التطامن والذلة وهو في الشرع عبارة عن الهيئة المخصوصة ، ومن ذلك الزكاة لم تكن العرب تعرفها الا من ناحية النماء . ومن ذلك المحرّم للشهر المعروف فانه لم يكن معروفاً في الجاهلية وانما كان يقال له واصفر الصفران . وكان اول الصفرين من الاشهر الحرم . وكانت العرب تارة تحرمه وتارة تقاتل فيه . فلما جاء الاسلام وابطل النسيء سماه النبي (ﷺ) شهر الله الحرام . ومن ذلك الجاهلية فانه اسم حدث في الاسلام للزمن الذي كان قبل البعثة . ومن ذلك الفاسق واصله خروج شيء من الشيء على وجه الفساد . يقال : فسقت الرطبة اذا خرجت من قشرها وكذلك كل شيء خرج عن قشره فقد فسق . ثم نقله الاسلام الى الخروج عن الطاعة . والامثلة في هذا اكثر من ان يحاط بها . ومن اراد التوسع في هذا الباب فليراجع الكتب الشرعية من التفسير وغريب الحديث واصول الدين والفقه واصوله فانه يقف على فيض من تلك المصطلحات المنبثة هنا وهناك . وتجدهم هناك يقولون لهذه اللفظة معنيان معنى في اللغة ومعنى في الشريعة . وانما انفردت الالفاظ الاسلامية عن سائر مصطلحات

العلوم كالعربية وغيرها لما للشرع من معنى الشمول . فان الالفاظ الشرعية تتمتع من الانتشار والشمول بما لا تتمتع به مصطلحات العلوم الاخرى . فان الذين يعرفون الصلاة - مثلا - بمعناها الشرعي اكثر بكثير من الذين يعرفونها بمعناها اللغوي . اما مصطلحات العلوم المختلفة فان معرفتها بمعانيها الاصطلاحية متصورة على اهل تلك العلوم ، فمصطلحات النحو - مثلا - لا يفهمها سوى النحوي . ومصطلحات العروض لا يعرفها غير العروضي ، خلاف المصطلحات الشرعية فانها مشاعة بين جميع افراد الامة عامتهم وخاصتهم .

واستعمال الالفاظ الشرعية بمعانيها الشرعية من قبيل الحقائق عند اهل الشرع واستعمالها بمعانيها اللغوية من قبيل المجازات عندهم، والامر عند اللغويين بالعكس . فالصلاة بمعناها الشرعي حقيقة عند الشرعيين مجاز عند اللغويين وهي بمناها اللغوي مجاز عند الشرعيين حقيقة عند اللغويين . ولهذا يقول علماء البلاغة ان الحقيقة اقسام منها اللغوية ومنها الشرعية . وكذلك المجاز منه الشرعي ومنه اللغوي .

الاصطلاح

قلنا ان الالفاظ الشرعية لا تخرج عن كونها مصطلحات ولكنها اوسع شمولا من مصطلحات سائر العلوم لان اتباع الشرع اكثر عديداً من اتباع كل علم من العلوم الاخرى على حدته ،ولما اتسع نطاق المعارف

وبسقت دوحتها وتبارت العقول فى خدمتها وتنميتها وامتاز كل علم منها بمسائله وقواعده . من علوم شرعية الى لسانية الى كونية وتكاثفت اغصانها وفروعها - احتاجوا الى كل فرع منها الى وضع مصطلحات كثيرة للمعاني الكثيرة التي زخرت بها تلك العلوم . فمصطلحات العلوم اللسانية تختلف عن مصطلحات العلوم الشرعية . وهذه تختلف عن مصطلحات علوم الفلسفة مثلا . فالعامل عند النحوي مثلا غيره عند الفقيه والفيلسوف . وكذلك الكلام والتميز والحال والاعراب والبناء الى غير ذلك من الكلم التي اصطلح عليها اهل كل علم في علمهم . وكان ارباب العلوم اذا جد لهم معنى وضعوا له لفظاً يناسبه فان اعوزهم فزعوا الى الاشتقاق او النحت او غيرهما وقد يتصرفون فى اللغة تصرفا يغضب اللغويين او المصرفين ولكنهم لا يبالون بذلك اذا ارضوا المعنى الذي يريدونه ، فقالوا : اللا ادرية او العندية والمتى والاين .. الخ . واذا ضنت عليهم العربية او بالاصح لم يتوفقوا للوصول الى بغيتهم منها فزعوا الى التعريب فقالوا : سفسطائية واسطقس وايساغوجي ، واقرباذين .. الخ

وقد تمازت مصطلحات كل علم عن غيرها ، واذا ضمت مصطلحات العلوم المختلفة الى بعضها يتوفر لديك معجم ضخم له شأنه . وقد فعل ذلك بعض المتأخرين فتم لديهم الشيء الكثير . ومجموع ذلك يؤلف لغة قائمة بنفسها هي لغة العلم ، وعليها المعول في كل لسان ،

وانا ارى ان معجم المصطلحات يجب ان يسبق المعجم اللغوي لانه الزم، والانتفاع به اكثر..

الالفاظ المولدة

قلنا ان المنابع الكبرى التي استقيت منها اللغة العربيه انما هي القرآن الكريم والحديث النبوي وكلام العرب الموثوق بعربيتهم» ومن المعلوم ان القرآن تم قبل انتقال الرسول الى الملأ الأعلى بزمن يسير وان الحديث النبوي ختم بانتقاله، فبقى كلام العرب الموثوق بعربيتهم واستمرت الثقة به الى ان اختلت سلائق القوم واضطربت السنتهم على اثر اختلاطهم بحمراء الامم وصفرائها فما كاد ينطوي بساط القرن الاول الهجري حتى انقضى عمر الاعتماد على كلام المتحضرة من العرب اما العرب؟ فامتد اجل الثقة بكلامهم الى ما بعد القرن الاول، ولكنه لم يطل الى ما بعد القرن الثالث الا في قبائل قليلة كانت معتصمة في شعاف بعض الجبال المنقطعة عن العمران، او الضاربة في بعض البوادي النائية التي لا تتصل بالحضر الا في القليل، وهم شراذم لا يعتد بهم، فالاخذ عن حاضرة العرب ومن يتصل بها او يكثر الترداد اليها من اهل البادية ينتهي بجرير والفرزدق ومن فى طبقتهما، ومن هناك تبدأ طبقة المولدين من مخضرمي الدولتين وعلى رأسها بشار وحماد عجرد ووالبة بن الحباب ومن فى طبقتهم فما حدث فى عهد هذه الطبقة وما بعدها من الالفاظ

يسمى مولداً ، وبعبارة اخرى ما احدثه المولدون من الالفاظ يسمى المولد ، ويقابله العربي. فيقال هذه لفظة مولدة وهذه عربية ، كما يقابل المعرب والدخيل بالعربي الصميم . فيقال هذا لفظ معرب وهذا من الصميم ..

وامثلة الالفاظ المولدة كثيرة تكاد تفوت الحصر من ذلك : النحرير كان الاصمعي يقول : انه ليس من كلام العرب وانما هو مولد . وأخ كلمة تقال عند التألم والتأوه والعربي اح بالحاء المهملة . ومن المولد الكابوس وهو ما يشعر به النائم من الثقل ، ومنه الفطرة والعربي صدقة الفطر او زكاة الفطر ، وهي من الالفاظ الاسلامية ومنه التفرج قال النووي : ولعله مأخوذ من انفراج الغم ، ومنه الجبرية والقدرية من مذاهب المتكلمين . الاول يطلق على من يقول الانسان مضطر في افعاله غير مختار ، والثاني يطلق على من يقول بان الانسان فاعل باختياره وخالق لافعاله ، ويقال للاولين اهل الجبر وللاخرين اهل القدر . ومنه الطفيلي وهو من يأتي الولائم من غير ان يدعى اليها ، وطفيل رجل كوفي كان يغشى الولائم من غير دعوة ويبالغ في ذلك فنسب اليه كل من يفعل مثل فعله ، وعربيه الضيفن لمن يجيء مع الضيف من غير دعوة ، والوارش لمن يدخل على القوم في طعامهم فيأكل من غير دعوة . والواغل لمن يدخل على القوم في شرابهم فيشرب معهم من غير ان يدعي الى الشرب . ومن المولد المخرقة وهي الافتعال والاحتيال ،

ومنه البحران وهو اعلى ما يصل اليه المرضى من الشدة وليس بعده الا الموت او البدء بكسر سورة المرض شيئا فشيئا ، وهي اصطلاح طبي ، ومنه تبغدد اذا تشبه بالبغداديين وليس منهم ، ومنه : بس بمعنى حسب ، وقيل هو عربي مأخوذ من البس وهو القطع وانشدوا :

يحدثنا عبيد مالقينا فبسك يا عبيد من الكلام

وانت ترى ان البس بمعنى القطع ثلاثي ، ولفظ بس المستعمل بمعنى حسب ثنائي وشتان بينهما . نعم لو قال قائل لاخر بساً اي بس كلامك بسا بمعنى اقطعه قطعا لكان صوابا . ومنه التخمين وهو القول بالحدس ، ومنه الفشار للهذيان والاقذاع في القوال .

تنبيه

يعد من المولد كل لفظ كان عربي الاصل ثم غيرته العامة تغييراً ما ، بأن كان ساكنا فحركته او متحركا فسكنته ، او مهموزاً فتركت همزه او بالعكس ، او قدمت بعض حروفه على بعض او حذفت وما الى ذلك .. مثال ذلك ان العرب تقول : في رجل سمح وفي اسنانه حفر وفي بطنه مغس او مغص وحدث في الناس شغب ، وجبل وعر ، وبلد وحش ، وحلبس في حلقة القوم كل ذلك بسكون العين والعامة تحركها ..

وتقول العرب : اصيب فلان بالتخمة وهو من التخمة اي الخيار

وهذه لقطة وهي تحفه ، وتناول الصبر للدواء المر المعروف ، وطامت الزهرة للنجم المعروف وسعف النخل ، والسحنة للهيئة كل ذلك بالتحريك والعامة تسكنه . والعرب تقول : هنأني الطعام ومرأني وطرأت على القوم وترأست عليهم كل ذلك بالهمز والعامة تتركه . والعرب تقول : رجل عزب ، وهذه كرة ، وتمسه الله وكبه لوجهه والعامة تزيد فيه الهمزة فتقول : رجل اعزب ، وهذه اكره ، واتمسه الله ، واكبه لوجهه . وامثلة ذلك كثيرة تجدها مبثوثة في ثنايا معاجم اللغة ودواوين الادب . وقد افرده بالتأليف جماعة منهم : الموفق البغدادي في ذيل الفصيح ، والحريري فى درة الغواص فى اوهام الخواص . وقد عقد له ابن قتيبة في ادب الكاتب اكثر من باب ، وعقد له الجلال السيوطي باباً خاصاً فى الجزء الاول من كتابه المزهر في علوم اللغة وانواعها .

المعرب والتعريب

المعرب ما استعملته العرب في كلامها من الالفاظ لمعان فى غير لغتها ، وقد اشترط بعضهم ان يكون اللفظ الذي تتلقاه العرب من العجم نكرةً مثل ابريم وجوقه وسرداب . فاذا كان علماً مثل ابراهيم واسماعيل واسحق فلا يسمى معربا وانما يسمى اعجميا .

ومن هذا تعلم ان التعريب هو نقل الكلمة من لغة اجنبية الى اللغة

العربية بتغيير او، بدونه ويسمى الاعراب ايضا. مثال ما تغير عند التعريب «سكر» فانه معرب «شكر» واقليد وهو المفتاح فانه معرب «كليد» وبنفسج، فانه معرب «بنفشه»، وهنزمن فانه معرب «انجمن» لمجمع الناس. ومثال ما عرب من غير تغيير النوروز، والكاغد، والبخت بمعنى الحظ. هذا ولا جرم ان استمداد لغة من اخرى يعد من اساليب نمائها، فالتعريب بالنسبة للغة العربية احد عوامل توسعها، فقد تناولت هذه اللغة طائفة من الكلم حتى اصبحت من لحمها ودمها وما من ذلك عليها من عاب، لان اللغة الحية تشبه المخلوقات تفتقر فى بقائها ونمائها الى مختلف الاغذية وفى عداد هذه الاغذية ما تنتزعه لغة من اخرى من مختلف الكلم هذا اذا كانت اللغة قوية البنية، والا فقد تكون بعض اللغات مرعى خصيبا لبعض آخر تأكل ما تشاء وتذر ما تشاء كما وقع فى اللغة التركية فانها عاثت بجارتيها العربية والفارسية وأكلت منهما اكل النهم الشره ولكنها بشمت وعسر عليها هضم ما ازدردته فحارت فى امرها ولم تزل حائرة ...

واما لغتنا العزيزة فهي - ولله الحمد - من اقوى اللغات على الهضم والتمثيل تنتزع اللفظة من اية لغة شاءت ثم تزدردها فلا تبرح ان تهضمها وتمثلها ايما تمثيل وتجرى عليها تصاريفها وتصبح كأنها فى الصميم منها. حتى ان علماء اللغة وأئمتها ليحارون فى هذا الباب كل الحيرة ويتعسر بل

يتعذر عليهم فى كثير من الاحيان تمييز الاصيل من الدخيل حتى ادى الامر ببعضهم الى انكار ان يكون فيها شيء من غيرها البتة وانقلب الامر على آخرين فاخذوا يفككون عراها وينكشونها نكشا ، ويخرجون ما هو منها فى الذؤابة فينسبونه الى غير اصله ويردونه الى غير اهله ، وما ظنك بقوم بلغ بهم الهوس فى هذه الناحية حتى اخرجوا لفظ « الادب » من صميم لغة العرب ، وهذا ـ لعمرك ـ شذوذ فى الشذوذ ، وتطرف في التطرف . ولسنا في مقام المناقشة لهؤلاء الناس في هذا الشأن لان لنا معهم مقالا فى غير هذا المقام ، ولكننا نريد ان نقول : ان اهم ما يجتنيه الباحث من الثمر في باب التعريب هو الالمام بطرقه التي سار عليها اسلافنا لان معرفة تلك الطرق وسبر منعرجاتها من اهم ما نستعين به في تذليل ما نحن بسبيله من العقبات في وضع المصطلحات العلمية التي فاض فيضها وتدفقت انهارها .

نحن لا نشك في ان اولينا كانوا يسيرون فى هذه السبيل على سجية لغتهم ويكلفونها فوق طاقتها ولا يقصرون فى امدادها بكل ما يسد حاجتها ، ويشبع نهمتها ، حتى اوصلوها الى ما اوصلوها اليه من البسطة فى المادة والنصاعة في البيان فوعت عنهم ما شاؤا ان يوعوها من علم وادب ولم تضق ذرعاً بحمل ما حملوها من معقول ومنقول ومحسوس وغير محسوس كما لم يبخلوا عليها بكل ما تطلبته منهم من خدمة صادقة وتغذية صالحة .

فهل يشك متأدب اليوم بان اللغة بعد مجيء القرآن الكريم والنهضة الاسلامية غيرها قبلها ، بل هي في العصر العباسي غيرها في صدر الاسلام فاذا قارنت بين لغة العلوم اللسانية والشرعية والكونية ولغة عرب الجاهلية تجد البون بعيداً والمسافة قصية وهل يرتاب مرتاب فى ان لغة الغزالي والرازي وابن رشد فى تآليفهم تختلف عن لغة امرىء القيس والنابغة وزهير وان لغة هؤلاء لو لم يتعهدها اهل المعرفة بالخدمة والتوسع والصقل والتهذيب لضاقت ذرعاً بتلك العلوم الكثيرة والمعارف الغزيرة ..

اما نحن فيجب علينا ونحن في عصر يتدفق بالمعارف ألا نقف موقف الجبان المتهيب وما علينا الا ان نشق لنا طريقا لاحبا من بين هذه العقاب المنيعة ونتخذ من اعمال اوائلنا مناراً نأتم به في عملنا ونستنير به فى هذه السبيل ولهذا كان من واجب ابناء العربية لهذا العهد ان يتفلوا هذه الناحية بحثا ليعرفوا ما يأتون وما يذرون في تمهيد طريق الحياة للغتهم هذه في هذا العصر الذي تطورت فيه الافكار تطوراً هائلا وصار من البعيد ان تقوم قائمة للغة الا اذا مشت مع افكار بنيها كتفا لكتف ، وسننشر في آخر هذه المحاضرة نماذج من طرق التعريب التي سلكها الاولون وعلى الباحث ان يرجع الى ما افرده العلماء من التآليف المهمة في هذا الباب الواسع ...

وذهب اناس الى ان ضبط الكلمات ومعرفة معانيها ، وضروب اشتقاقها و كيفية استعمالها يغني عن معرفة ان هذه الكلمة اصل في اللغة او مستعارة ، ولا سيما بعد ان نحكم بان اللفظ المستعار لا يلبث ان يأخذ مكانه من اللغة المستعيرة ويكون له ما للاصيل وعليه ما عليه فاي فائدة تعود علينا من البحث عن اصله والرجع الى سنخه وهل هذا الا ضرب من ضروب العبث ولون من الوان اللهو بالباطل ، وذهب آخرون الى ان هذه المباحث جمة الفوائد كثيرة الثمر وهي اكبر معين في دراسة تاريخ اللغة وفلسفتها واقوى نصير في معرفة اسرار نمائها وعوامل بقائها الى غير ذلك من الفوائد التاريخية واللغوية .

بماذا يعرف المعرب :

الاصل في كل كلمة تستعملها العرب ان تكون عربية النجار الى ان يقوم الدليل القاطع على انها معربة . ولا ينبغي الحكم عليها بالتعريب بمجرد موافقتها او مقارنتها كلمة تستعمل بمعناها في اللغة العجمية . اذ قد تكون الكلمة في العربية اصلا وقد نقلها العجم الى لغتهم مثل لفظة « الجمل » فانها اصل في العربية وقد نقلها كثير من الشعوب الى لغاتهم، كما قد تكون الكلمة اصلا في اكثر من لغة لانها موروثة من لغة قديمة اندثرت بعد أن ولدت عدة لغات مثال ذلك كلمة « ارض » المستعملة في العربية والانجليزية وغيرهما . فانّ الارض معمورة بالامم منذ

وجدت الامم فلا يعقل ان امة من الامم بقيت لا تعرف للارض اسماً الى ان سمته من امة اخرى فاستعارته منها هذا امر تحيله العادة .

وهذا الباب من اضيق الابواب واغمضها ولا يمكن التوصل اليه الا بعد اجتياز اوعر المسالك واصعبها ومن ثم نجد اقواماً خاضوا في هذه المباحث على غير هدى فضلوا سواء السبيل فتراهم حيرى كأنهم يدورون في حلقة مفرغة فبينما تراهم ينسبون كلمات هي من العربيه في الصميم الى نجار عجمي اذ تراهم يلصقون بالعربية كلمات هي من صميم العجمية واذا طالبتهم بالدليل سلكوا بك بنيات الطريق . وبعد الشدة والعناء رجعت صفر اليدين ورضيت من الغنيمة بالاياب ، وقد وضع الاقدمون في هذه السبيل بعض الصوى ليهتدي بها السالك ، وهي على ضنا لتها لا تخلو من فائدة ، قالوا تعرف عجمية الاسم بوجوه :

احدها — النقل بان ينقل ذلك احد الاعلام .

الثاني — خروج الكلمة عن اوزان الاسماء العربية مثل الابريسم فان هذا الوزن مفقود في ابنية الاسماء العربية فلذلك اختلفوا في ضبطه - لانهم قد يخلطون فيما ليس من كلامهم ولو كان من الاوزان العربية لما اخطأهم ضبطه ولما اختلفوا فيه كل ذلك الاختلاف

الثالث — ان يكون اول الاسم نوناً بعدها راء مثل « نرجس » فانه معرب « نركس »

الرابع — ان يكون آخر الكلمة زايا بعدها دال مثل « مهندز » ولذلك قالوا فيه « مهندس » ليبعدوا عما لا الف لهم به .

الخامس — ان يجتمع في الكلمة الجيم والصاد مثل « الصولجان » و « الجبص » فانهما معربان « كوجان » و « كج » .

السادس — ان يجتمع فيه الجيم والقاف مثل « منجنيق » للآلة الحربية المعروفة « والجردقة » للرغيف ، و « الجرموق » للذي يلبس فوق الخف ، و « الجوسق » للقصر و « الجولق » للوعاء المعروف « جواله » والجلاقق للبندق والجوقه للجماعة من الناس ..

السابع — ان يكون الاسم رباعياً او خماسيا وهو خال من احد حروف الذلاقة وهي « ب ، ر ، ف ، ل ، م ، ن » يجمعها قولك « فر من لب » وهي اخف الحروف ولذا لا تخلو منها الاسماء الرباعية والخماسية لما في هذه الاوزان من الثقل لكثرة حروفها فيلحق بها بعض هذه الحروف لتنحو بها نحو الخفة ، مثل « الزاووق » فانه لغة فى « الزئبق » وشذ عن هذا الاصل كلمة « عسجد » فانهم قالوا بعربيتها مع انها خالية من حروف الذلاقة . وقال الازهرى في التهذيب ، متعقباً على الوجه الخامس ، قد تجتمع الجيم والصاد في بعض الكلمات العربية من ذلك قولهم جصص الجرو اذا فتح عينيه ، وجصص فلان اناءه اذا ملأه . والضج ضرب الحديد بالحديد .

الثامن — ان تجتمع الجيم والطاء فى الاسم مثل « الطازج » فانه معرب (تازه) وهو الطرى

التاسع — ان يجتمع فى الاسم الصاد والطاء مثل « الاصطفلية » وهي الجزرة فانها معربة . واما الصراط والصاد فيه بدل السين اذ اصله السراط مأخوذ من السرط وهو الابتلاع بكثرة ..

العاشر - ان يجتمع فى الاسم السين والذال مثل « ساذج » فانه معرب « ساده » وهو البسيط الخالص عما يشوبه ، وهو فى الاصل ما لا نقش فيه وما يكون على لون واحد لا يخالط غيره .

الحادي عشر — ان يجتمع في الكلمة السين والزاى مثل « سزاب » وهي بقلة معروفة فانها معربة .

الثاني عشر — ان يجتمع في الكلمة لام بعدها شين ، قال ابن سيده : ليس فى كلام العرب شين بعدها لام في كلمة عربية محضة لان الشينات كلها فى كلام العرب قبل اللامات . فكلمة التفليش بمعنى الهدم ليست عربية بخلاف كلمة « شغل » وقال الجاحظ في كتابه « البيان والتبيين » : ان الجيم لا تقارن الظاء ولا السين ولا الضاد ولا الذال بتقديم ولا تأخير .

هذا مجمل ما وضعه الاقدمون من الاعلام في هذه السبيل وقد توصل علماء اللغات لهذا العهد الى اصول فى هذا الباب كان يعز على

الاقدمين الوصول الى بعضها وما ذلك الا لانصراف جماعات المستشرقين الى دراسة اللغات المختلفة ولا سيما القديمة منها والايغال فى احشاء القرون البعيدة واستشارة دفائنها وبذل الوسع في دراسة اصول اللغات وفقهها والاحاطة بفروعها المختلفة من جميع جهاتها وقد صدروا عن هذه المباحث وهم يحملون من العلم ما كان مطموراً فى غيابة التاريخ البعيد، فاذا حكموا فى هذا الباب فحكمهم الفصل واليهم يرجع امر العقد والحل ، ومن امثلة ما وضعوا من القواعد في هذا الشأن قولهم : اذا اتفقت كلمتان لفظا ومعنى وكان بين اهل هاتين اللغتين صلات جغرافية او تجارية او سياسية او نحوها مباشرة او بالواسطة ينظر فاذا كان ذلك المعنى من نتاج قرائح احدى تينك الامتين او من مصنوعاتهم او من منتوجات بلادهم ومحاصيلها يرجح ان يكون اصلاً فى تلك اللغة منقولا منها الى غيرها . مثال ذلك الساعة فان العرب كانت تطلقها على الجزء المخصوص من الزمن ثم لما ابدعوا الآلة المعروفة التي تدل على اجزاء الزمن وتعيينها اطلقوا عليها هذه اللفظة .. فهم اسبق الامم الى تسمية الآلة بهذا الاسم فاذا سمعنا الفرس او الترك مثلا استعملوا هذه اللفظة بهذا المعنى نقطع بانهم استعاروها من اللغة العربية . ومثل هذا كثير من المصطلحات التي وضعها العرب عندما دونوا علوم لسانهم . مثل عطف واضافة وتمييز وغيرها فاذا رأينا بعض الامم الشرقية

استعملت هذه المصطلحات فى معانيها عند العرب او في معان تقرب منها نجزم بأنهم استعاروها من اللغة العربية . هذا اذا علمنا بان العرب دونوا هذه المصطلحات قبل غيرهم . ومن ذلك كلمة القهوة فانها موجودة في العربية وفي معظم لغات العالم فاذا علمنا ان العرب كانوا يطلقون هذه اللفظة على الخمره ثم اطلقوها على هذه الثمرة المخصوصة المسماة بالبن وهي من منتوجات بلاد اليمن فى الاصل ثم انتقلت الى البلاد الاخرى ، اذا علمنا هذا نقطع بان هذه اللفظة بهذا المعنى عربية النجار ، ومن ذلك الجمل والغزال ونحوها من الحيوانات التي تكثر فى بلاد العرب او كانت خاصة بها ومنها نقلت الى غيرها ..

واذا علمنا ان المسك مثلاً ينتج فى بلاد التبيت والصين وبعض بلاد الهند ومنها يحمل الى سائر بلاد العالم وعلمنا ان هذه اللفظة مستعملة فى السنسكريتية الاصل والفارسية والعربية وغيرها ـ نعلم ان هذه اللفظة بمعناها هذا سنسكريتية الاصل ، ومنها انتقلت الى غيرها من اللغات مباشرة او بالواسطة ، ومثل ذلك الكافور فانه في السنسكريتية وغيرها ولكننا اذا عرفنا ان مصدر هذا النوع من الطيب بلاد الصين واليابان وملقا وان اسمه باللغة الملقية « كابور » عرفنا انها كلمة ملقية الاصل ، ومنها انتقلت الى غيرها من اللغات ، ومثل ذلك الفلفل فان مصدره بلاد الهند وهو فى اللغة السنسكريتية « بيالا » او « فيفالا » . والامثلة في هذا كثيرة لا يكاد يحيط بها الحصر .

قلنا : ان المتبحرين في دراسة اللغات لهذا العهد انصرفوا الى استشارة دفائن اللغات القديمة وحلوا رموزها ، ودرسوا اصولها درساً دقيقاً ، واستخرجوا فروعها وقارنوا بينها من حيث المادة والصرف والنحو وغيرها وبذلك توصلوا الى معارف جمة وعلوم مهمة وقد ارجعوا كل طائفة من اللغات الى اصل واحد وهذا الاصل اما ان يكون باقياً او مندثراً فاصول الباقية هي التي سارع اهلوها الى تدوينها منذ العصور القديمة العريقة بالقدم ، والمندثرة هي التي لم تدون فبقيت مطمورة في طيات القرون الخالية ، اما فروعها فنمت واورقت ثم اثمرت ، ومنها ما قضى نحبه ومنها ما ينتظر .

فاذا ذهبنا الى القول بان اللغة العربية والعبرانية والكلدانية مثلا بنات لأم واحدة هلكت وعاشت بناتها ، نعلم ان كثيراً من الالفاظ بقيت مشتركة بين هذه اللغات ، فاذا رأينا لفظة في اكثر من واحدة من هذه اللغات دالة على معنى واحد او على معان متقاربة لا يمكننا الحكم باصالتها في لغة دون اخرى بل نرجح ان تكون هذه اللفظة من ميراث اللغة الأم فهي اصل في كل منها ، وبالعكس اذا وجدوا لفظة في احدى هذه اللغات تخلو منها سائر اخواتها يشكون في كونها اصلا في هذه اللغة ..

وعلى هذا وضعوا قاعده اغلبية وهي انهم اذا وجدوا لفظة في

لغتين او اكثر ترجع الى اصول مخالفة ولم يجدوا تلك اللفظة فى اخوات احدى اللغتين او اللغات يرجحون انتسابها الى اللغة الاخرى . مثال ذلك اذا وجدوا لفظة في العبرية والمصرية القديمة مثلا ولم يجدوها فى العربية ولا الكلدانية يرجحون انها مصرية ..

هل التغيير ضرورى فى التعريب ؟

من الكلمات المعربة ما يبقى على حاله قبل التعريب مثل : بخت ونوروز ومنها ما يجرى عليه التغيير يسيراً كان او كثيراً .

والاصل فى هذا الباب عدم التغيير ، وابقاء الاصل على حاله الا اذا دعت الى التغيير ضرورة فيصار اليه ، ولكن التغيير يكون بقدر ما قضت به تلك الضرورة من غير زيادة ولا نقصان ، ومع هذا فان كثيراً ما نجد تغييراً لا تدعوا اليه الحاجة ولا تقضي به الضرورة . مثال ذلك : « الكعك » فانه معرب « كاك » قلبت ألفه عيناً من غير ضرورة داعية و« الدهقان » معرب « ده خاز » اي رئيس القرية ومقدم اهل الزراعة من العجم .

وقد يجتمع فى الكلمة الواحدة تغيير لازم وآخر غير لازم مثل كلمة « البد » بمعنى الصنم فانه معرب « بت » قلبت فيه الباء الفارسية المثلثة باء عربية ، وهذا القلب لازم لئلا يدخل في الحروف العربية ما ليس منها . وقلبت التاء دالا ، وهذا القلب غير لازم كما هو ظاهر ..

واسباب التغيير كثيرة منها اشتمال الكلمة الاعجمية المراد تعريبها على بعض الحروف العجمية التي لا وجود لها فى اللغة العربية كما اشرنا الى ذلك فى اول هذا البحث. ومنها ان يكون فى الكلمة الأعجمية حركة لا وجود لها فى العربية او هي موجودة فى لغة ضعيفة مثل كلمة « زور » بمعنى القوة فانها معربة من كلمة « زور » بضمة مشوبة بالفتحة ، فابدلت عند التعريب بضمة خالصة لعدم وجود الضمة المشوبة في العربية المشهورة ، ومنها الثقل مثل « ناى » آلة الطرب المعروفة فانها معرب « ناي نرمين » وقد حذف شطرها الثاني للخفة ومنها نقص الكلمة الاعجمية من ثلاثة الاحرف مثل « صك » بتشديد الكاف ، فانه معرب « جك » الثنائي على ما عرفت آنفاً . ومنها كون الكلمة الاعجمية مبدوءة بحرف ساكن فيضطر عند التعريب الى تحريكه او زيادة همزة قبله مثل هليلج واهليلج معرب « هليله » وهو الثمر المعروف . ومنها ان يجتمع في الكلمة الاعجمية حرفان ساكنان سكونا على غير حده فيحرك احدهما مثل « ازن » تعريب « آزن » كما تقدم . ومنها تحريك آخر الكلمة المعربة بحركة الاعراب فان كان الحرف الآخر فى الكلمة الاعجمية هاء رسمية « دوره » لمكيال الشراب وللجرة ذات العروة و « لوزينه » لنوع من الحلوى و « روزونة » للكوة وجب قلب هذه الهاء الى حرف آخر قابل لحركة الاعراب وقد اعتادوا قلبها جيما وهو الاكثر وربما قلبوها قافا او تاء

فقالوا : لوزينج ، ودورق وروزونة وقد تقلب هذه الهاء كافا وعليه اعربوا كلمة « نيزه » وهو الرمح القصير الى « نيزك »

واسباب كثيرة يعرف كل فى محله وقد تشدد بعض الأعلام فى وجوب صيانة الاعلام من التغيير بقدر الامكان حتى قال بعضهم : يجب صيانة العلم الاعجمي من كل تغيير مهما كلفنا ذلك من المؤونة فيجب ان ننطق بها كما ينطق اهلها من غير ادنى تغيير وهو رأي وجيه ولكنه عسر التطبيق لان الحكم على الالسنة باجراء ما لا عهد لها به امر غير يسير كما يشهد به الواقع .

هل يجب الحاق المعرب باوزان الكلم العربية ؟

ذهب بعض اللغويين الى انه يجب الحاق المعرب باوزان كلام العرب

قال الحريري : من مذهب العرب انهم ان اعربوا الاسم الاعجمي ردونه الى ما يستعمل من نظائره فى لغتهم وزنا وصيغة ، وقد كرر هذا الرأي في غير ما موضع من كتابه « درة الغواص فى اوهام الخواص » منها ما جاء فى صفحة ٦١ من طبعة الجوائب فى بحث دستور ، وفى الصفحة ٨٠ فى بحث الشطرنج . وقد انكر عليه شراح كلامه هذا الرأي وعدوه من اوهامه .

والذي عليه جمهور علماء اللغة انه لا يجب في المعرب ان يرد الى اوزان كلام العرب . وقد جاء فى كتاب سيبويه ان الاسم المعرب ربما

الحقوه بابنية كلامهم وربما لم يلحقوه . فما الحقوه بأبنيتهم درهم وبهرج ، ومما لم يلحقوه الا فرند والاجر الى آخر ما فصله . وقد اوضح هذه الناحية ابو منصور الجواليقي فى كتاب « المعرب » ، وابن السيد البطليوسي فى كتاب « الاقتضاب في شرح ادب الكتاب » في باب ما ينقص منه ويزاد فيه ويبدل بعض حروفه فى الصفحة ٢١٥ من طبعة بيروت سنة ١٩٠١

وبالجملة فان الجمهور من اهل العربيه لا يشترطون رَدّ المعربات الى ابنية اللغة العربية ولكنهم يستحسنون ذلك اذا جاء بسهولة لتكون المعربات المقحمة على العربية شبيهة باوزانها ولذلك استعملوا « نيروز » اكثر من نوروز . لان نيروز ادخل فى كلامهم واشبه به لانه كقيصوم وعيثوم . وبهذا نعلم سخف ما يذهب اليه بعض المعاصرين المتشددين من وجوب الحاق المعربات باوزان العرب .

تنبيه

اول من حاول استيعاب ابنية الاسماء والافعال في اللغة العربية سيبويه فاحصى الاسماء ٣٠٨ من الامثلة ثم جاء ابن السراج فذكر منها ما ذكره سيبويه وزاد عليه ٢٢ مثالا وزاد ابو عمرو الجرمي امثلة يسيرة وكذلك فعل ابن خالويه ، فتقرى ابو القاسم السعدوي اللغوي المعروف بابن القطاع ابنية الاسماء العربية وبذل جهده في الاستقصاء

فاستوى لديه ١٢١٠ من الامثال في هذا الباب فلا يجوز لاحد ان يقضي بخروج بناء ما عن ابنية اللغة العربية ما لم يستقصي هذه الامثلة ويتقنها معرفة وضبطا .

تصريف المعرب

ينقسم المعرب الى قسمين · الاول الاعلام والثاني اسماء الاجناس فالاعلام الاعجمية المنقولة الى العربية لا يبحث في العربية عن اصول اشتقاقها او جمودها ، وانما تستعمل اعلاما فى العربية كما كانت اعلاما في الاعجمية ، ولا يدخلها من التصريف الا احكاما مخصوصة من جمع وتصغير ونحوهما ..

فلا يجوز بعد هذا ان يقال ان ابليس - مثلا - مأخوذ من الابلاس . بمعنى البأس والانكسار ، واسحق من اسحقه الله اذا ابعده لان الابلاس والاسحاق لفظان عربيان وابليس واسحق علمان اعجميان ولا يعقل ان يشتق الاسم الاعجمي من لفظ عربي .

نعم يجوز ان يؤخذ من بعض الأعلام بعض التصاريف مثل اعرق اذا صار الى العراق - على القول بان العراق اعجمي - ودولب اذا قصد دولاب وهي مدينة اعجمية . ويقولون تبغدد اذا تشبه بالبغداديين . وبهذا يعلم انه يجوز اشتقاق بعض الصيغ من بعض الاعلام الاعجمية المنقولة الى العربية ، ولا يجوز قطعا ان يزعم زاعم اشتقاق علم اعجمى من

لفظ عربي . ولا يغرنك ما تراه مبثوثا في معاجم اللغة من هذا القبيل لانه صادر عن ذهول في الغالب .

واما الضرب الثاني : وهو اسماء الاجناس المعربة فلا ينبغي ان يبحث في العربية عن اشتقاقه لان هذا الاشتقاق اما ان يكون من اصل عجمي لا شأن للعربية فيه فيكون البحث عنه من قبيل الخلط الذي قد يؤدي الى التخليط ، واما ان يكون الاشتقاق من لفظ عربي وهو محال اذ لا يعقل ان يشتق الاعجمي من العربي كما لا يعقل بالعكس ، وانما تشتق الالفاظ بعضها من بعض في اللغة الواحدة لأن الاشتقاق نتاج وتوليد ولا يعقل ان يتولد الشيء من غير نوعه . قال بعضهم فى هذا الشأن : ومن المحال ان تنتج النوق الا حورانا وتلد المرأة الا انسانا ومن اشتق الاعجمي المعرب من العربي كان كمن ادعى ان الطير من الحوت . وما ورد فى كتب اللغة مما يخالف هذا الاصل فهو تخليط لا يعبأ به ولا يجوز ان يصار اليه .

هذا هو الرأي في اشتقاق الاسم الاعجمي المعرب من غيره . واما الاشتقاق من اسم الجنس الاعجمي المعرب فمعروف في العربية شائع فيها والعرب كثيراً ما تجري على هذا الضرب من المعربات الاحكام الجارية على العربي الصميم . الا تراهم تصرفوا في اللجام وهو معرب تصرفهم فى لفظ عربي اصيل . فقالوا الجم يلجم الجاما ورجل ملجم وفرس ملجم ،

وقالوا تلجم يتلجم تلجما. كما تصرفوا في الديوان وهو دخيل فقالوا: دون يدون تدوينا ، والرجل مدون ، والعلم مدون وقالوا : بهرجه اذا ابطله واصله من قولهم درهم بهرج اي رديء. وهو معرب « نبهره » ويراد به الزغل والباطل .

والخلاصة

انه لا يجوز بوجه من الوجوه ان يكون الاسم الاعجمي المعرب مشتقا من لفظ عربي سواء كان الاسم الاعجمي علما في اللغة الاعجمية او نكرة اما الاشتقاق من الاسم الاعجمي المعرب فيكثر في النكرات ويندر في الاعلام . فاذا سمى بعض العرب ابنه « قابوس » تعريب « كاووس » او ابنته شيرن فلا يبحث عن كون هذين العلمين مشتقين او انهما اصل يشتق منهما ، وعربوا « زيوه» فقالوا «زئبق» ولم يسألوا هل هو مشتق ومن اين هو مشتق . ولكنهم تصرفوا به واشتقوا منه فقالوا زأبق الدرهم ودرهم مزئبق اذا كان مطليا بالزئبق . وقالوا فيه الزوق والزاووق وقالوا زوق تزويقا اذا زين وحسن ، ووجه مزوق وثوب مزوق ، بمعنى مزين ، وتحرفه العامة فتقول : مزروق .

وعلى هذا الاصل مشى اسلافنا في تصريف كثير من اسماء الاجناس المعربة فقالوا : فلسف وتفلسف ورجل متفلسف . وقالوا قرطس من القرطاس وهو اعجمي معرب . ومعنى قرطس اصاب

القرطاس وهو الهدف لانه يكون من القرطاس في الغالب . واذا علمنا ان « الكهربا » معرب « كاه ربا » بالفارسية ومعناه فيها جاذب التبن ويريدون به المادة التي يعمل منها هذا الخرز الاصفر المعروف اليوم باسم « الكهرب » اذا علمنا هذا واطلقنا اليوم هذه اللفظة على القوة المخصوصة جاز ان نتصرف بها فنقول تكهرب الجسم ، وجسم مكهرب وقد كهربنا الصندوق ، وصندون مكهرب . وكذلك اذا قبلنا تعريب كلمة التلفون مثلا قلنا على اسلوب الاسلاف ان نقول : تلفن فلان يتلفن .

وفي هذا مافيه من تذليل العقاب الماثلة امام المترجمين والمؤلفين فى العلوم الكونية المختلفة التي فاض فيض المصطلحات فيها وطمى تيارها.

كيفية التعريب

قلنا : ان التعريب هو نقل الكلمة من لغة اجنبية الى اللغة العربية بتغيير او بدونه . ولكن الغالب فيه التغيير قليلا كان او كثيراً . وذلك اما ان يكون بالزيادة او النقص او الابدال ، وعلى كل : اما ان يكون لازماً او غير لازم . وهاك الامثلة على ذلك :

مثال التغيير اللازم بالزيادة : « الدستجة » بمعنى الحزمة . معرب « دسته » بدلت فيها الهاء جيما وزيدت التاء فى آخرها للدلالة على الوحدة . و « صك » معرب « جك » زادوا في آخره حرفاً من

جنسه وادغموه فيه لان الاصل في الاسم العربي الا يقل عن ثلاثة احرف .

ومثال التغيير غير اللازم بالزيادة : « سكر » زيدت فيه الكاف بعد السين وادغمت في الكاف بعدها .

ومثال التغيير اللازم بالنقص : « رست » معرب « راست » بمعنى « صحيح » حذفت الالف دفعاً لالتقاء الساكنين . و « ابزن » مثلث الهمزة حوض يغتسل فيه ، ويتخذ من نحاس ليجلس فيه المرضى للتعريق ، وقد يتخذ من الخشب ، وقال ابو دؤاد الايادي يصف فرساً منتفخ الجنبين :

اجوف الجوف فهو منه هواء   مثل ما جاف ابزناً نجار

اي مثلما وسع النجار جوف الابزن وهو معرب « آب زن » حذفت الفه دفعاً لالتقاء الساكنين .

ومثال النقص غير اللازم : « سرداب » للبناء المعروف فانه معرب « سرد آب » بمعنى « الماء البارد » ، وسمي به البناء المعروف لانه كان يعد لتبريد الماء . وقد حذفت الفه عند التعريب من غير لزوم .

والنقص قد يكون في اول الكلمة مثل « بهرج » بمعنى الباطل والزغل ، وهو معرب « نبهره » حذفت منه النون . وقد يكون في الوسط كما تقدم في سرداب ، وقد يكون في الآخر مثل كلمة « النشا »

فانها معربة من كلمة « نشاحنة » والنقص قد يكون بحرف واحد وقد يكون باكثر كما رأيته في الامثلة الآنفة . والابدال على قسمين : الاول ابدال حرف بآخر ، والثاني ابدال حركة او سكون بغيرهما .

وابدال الحرف بغيره قد يكون لازما وقد يكون غير لازم . فمثال الابدال اللازم « بد » بمعنى الصنم فانه معرب « بت » ابدلت الباء الفارسية المثلثة بالباء العربية ابدالا لازما لئلا يدخل فى كلامهم ما ليس منه . وابدلت التاء بالدال ابدالا غير لازم لقرب ما بين مخرجهما .

وبالجملة فانهم يبدلون الحروف التي ليست من حروفهم الى اقربها مخرجا فى الغالب ، وربما ابعدوا فى الابدال لاسباب قد تكون ظاهرة وقد تكون غامضة .

ومثال الابدال غير اللازم « برنامج » فانه معرب « برنامه » ابدلت فيه الهاء جيما .

ومثال ابدال حركة بحركة اخرى « سكر » معرب شكر كما مر ابدلت فتحته بالضمة . ومثال ابدال حركة باخرى ، وسكون بحركة ، وحركة بسكون ، كلمة سيبويه ، فان العجم تنطقه سيبويه فابدلت العرب ضمة الياء بفتحة وسكون الواو بحركة وهي الفتحة ايضا وابدلوا فتحه الياء الثانية بالسكون .

وربما دخل فى الكلمة الواحدة انواع شتى من التغيير مثل كلمة :

« زهة » فانها معربة من كلمة « دور ره » بمعنى الطريق البعيد فابدلت الدال بالتاء وحذفت الواو وجوبا لالتقاء الساكنين وادغمت الواو في الراء وحركت الهاء الساكنة بالفتحة وزيدت بعدها تاء للدلالة على الوحدة . فانت ترى انه قد دخلها النقص والزيادة والابدال بانواعه ، ويقارب هذه كلمة « زئبق » تعريب « زيوه » فان الابدال لحق جميع حروفها . والتغيير هو الغالب فى التعريب . واغلب ما يقع فى الكلمات التي تبعد اوزانها عن الاوزان العربية ، او تشتمل على حروف لا وجود لها بين الحروف العربية مثل « پ ، چ ، ژ ، گ ، ڤ » فان الضرورة تقضي بابدال الحرف الاول بالفاء او الباء لان العجم تلفظه بين هذين الحرفين ، ولذلك قال العرب « فرند » و « برند » في تعريب كلمة « پرند » الفارسية ، وفرند السيف وبرنده جوهرة ووشيه . وكذلك تقضي الضرورة بابدال الحرف « چ » بحرف يقاربه من الحروف العربية ، وقد اعتادوا ان يبدلوه بالصاد ويقولون « صك » في تعريب « چك » وصين في تعريب « چين » و « صنفانه » في تعريب « چنانه » . وهي من الآت اللهو . وربما ابدلوه بالشين فقالوا « شاكري » في تعريب « چاكري » وهو الاجير المستخدم . وربما ابدلوه بالجيم فقالوا « جوالق » فى تعريب « چواله » وهو العدل لان العجم تلفظه بين الشين والجيم . والضرورة تقضي ايضا بابدال الحرف « ژ » بحرف من

الحروف العربية يقاربه فى المخرج . ولما كان العجم يلفظونه بين الزاى والجيم ابدلته العرب بالزاى فقالت « زئبق » في تعريب « ژيوه » و « زون » فى تعريب « ژون » وهو الصنم .

و كذلك ابدلوا الحرف « گ » بالجيم لانه يلفظ بين الجيم والكاف، فقالوا « جزاف» فى « گزاف » و«جلنار »في گلنار وهو زهر الرمان، «وجناح »فى«گناه » وهو الذنب و «جوز» فى « گوز » للثمر المعروف.

وابدلوا الحرف الخامس من الحروف الخمسة المذكورة بالفاء او الواو لانه ينطق بينهما.

تدوين علم اللغة

لا نريد فى موضوعنا هذا ان نتعرض للبحث عن نشأة اللغة العربية وكيف تولدت مفرداتها وتوسعت ، وما هي عوامل توليدها وتنويعها وتوسيعها ، وكيف تميزت اسماؤها وافعالها وحروفها بعضها عن بعض ، وكيف تفرعت هذه الانواع الى فروعها المختلفة حتى وصلت الى ما هي عليه اليوم - لان هذه المباحث وما اشبهها انما هي من موضوع « الفلسفة اللغوية » .

وكذلك لا نتعرض في هذا الموضوع للنظر فيما اعتور مفردات اللغة وتراكيبها من التقلبات ، وما طرأ عليها من التغيرات فى مختلف الازمان وتعاقب الاجيال ، مثل هجر بعض الكلمات ، وإماتة بعض ،

وايجاد كلمات اخرى، وكاهمال بعض التراكيب ثم نسيانها واحداث غيرها من التراكيب الجديدة والاسباب الداعية الى هجر ما هجر ، واهمال ما اهمل ، ونسيان ما انسى واماتة ما اميت ، وتجديد ما جدد ، الى غير هذه من المباحث التي ترجع الى « علم تاريخ اللغة» لا الى « تاريخ علم اللغة».

ولا بد لنا قبل الخوض فى المقصود ان نمهد له بعض التمهيد فنقول : كان علماء العربية في بادىء الامر يعتمدون في الجمع والنقل على الحفظ والرواية فحسب ، ثم ما لبثوا ان انصرفوا الى تدوين منقولاتهم ومروياتهم وتبويبها وتفصيلها وتهذيبها ، ولكنهم كانوا مع ذلك لا يعتمدون على الاخذ من هذه المدونات بقدر ما يعتمدون على الحفظ والاخذ بالمشافهة والمدارسة فالعبرة عندهم للحافظة واللسان لا للدفتر والقلم ، وقد غبروا على هذه الطريقة المزدوجة حيناً من الدهر . ثم اخذ امر الرواية يضعف شيئا فشيئا الى ان صاروا يقتصرون على الاخذ من الكتب كما هي الحال لهذا العهد ومن هنا تبين ان علم اللغة تقلب فى ثلاثة اطوار :

١ — طور الرواية وحدها .

٢ — طور الرواية والكتاب .

٣ — طور الكتاب وحده .

ونحن نفرد لكل طور من هذه الاطوار بحثا برأسه .

١ – طور الرواية الخالصة

قلنا ان اول طلائع الاختلال فى اللغة المعربة انما ظهرت فى اعرابها ، ونقول الآن : ان عاهة اللحن فى كلام الموالي والمتعربين ومن خالط الاعاجم من العرب او جاورهم نشبت منذ عصر البعثة النبوية حينما اعتنق الاسلام اناس يرتضخون لكنا شتى من بين رومية وفارسية وحبشية وغيرها . وقد رووا ان رجلا لحن بحضرة النبي (ص) فقال النبي (ص) : «ارشدوا اخاكم فقد ضل» وكتب كاتب لابى موسى الاشعري الى امير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض) فلحن فكتب اليه عمر (رض) : «ان اضرب كاتبك سوطا واحداً» ثم فشا اللحن فى اخريات عهد الراشدين على اثر اتساع رقعة الفتوح ، وانتشار العرب في الارض ، وتبسطهم فى العمران ، ولم يزل امره آخذاً بالاتساع ولا سيما في الحواضر الكبرى التي تحوى الفافا من الموالي المتعربين ، وبعض الاعاريب الذين استخذت سلائقهم ، ولم تتوقح ملكة الفصاحة فيهم لاسباب اجتماعية او جغرافية او غيرها ، وعند ذاك خشى عقلاء الامة واهل العلم منهم ان يتمادى امر الاختلال والاضطراب في الالسنة فينتهى الامر بفساد اللغة المعربة فساداً لاصلاح وراءه فينغلق امر القرآن والسنة النبوية على الفهوم ، وينهار صرح اللغة وآدابها ولا سيما بعد ان اصبحت لغة دينهم الذي اخرجوا به من الظلمات الى النور ،

ولهذا شرعوا يستقرون الكلام ويستنبطون من مجاريه قوانين وضوابط واصولا يقاس عليها اشباهها ونظائرها واصطلحوا على تسميتها « بعلم النحو » .

ولا جرم انهم عندما عمدوا الى استنباط قوانين هذا العلم انجرت بهم الحال الى استقراء الشيء الكثير من منظوم العربية ومنثورها ، وقد امتطوا من ذلك غارب بحر عجاج ، لان العربي بطبيعته من اثبت الناس حفظا ، واقواهم حافظة ، ولا سيما اذا عاش في بيئة تغمرها الامية والجأته الضرورة الى استخدام لسانه وحده في افانين المحاورات والمناظرات والمساجلات وسائر ضروب التعبير عما في مطاوى الضمير ولهذا كان العربي يومئذ - كما يقول بعض الفضلاء المعاصرين - كتابا او جزءاً من كتاب ، وكانت كل قبيلة بذلك كأنها سجل زمني في احصاء الاخبار والآثار . فالعربي بطبيعته وطبيعة بيئته ضابط لمآثره ومآثر قومه راو لما هو في سبيله من امره وامر عشيرته .

ومن هذا تعلم صحة ما قلناه من ان علماء العرب عندما انصرفوا الى استخراج قواعد النحو وجدوا انفسهم امام بحر من منظوم القول ومنثوره .

وواضح ان النحوي لا يصل الى استنباط قواعد النحو واستخراج مسائله الا بعد البحث عن معنى ما يستعين به من منثور

القول ومنظومه لان القواعد النحوية تابعة للموضوعات اللغوية فمعرفة معاني الكلام سابقة لاستخراج قوانين تركيبه ، وضبط قواعده فالمعاني اللغوية اساس للقواعد النحوية ، ومن لم يكن متبحراً في معرفة موضوعات اللغة لا يتمكن من استخراج قواعدها وضبط اصولها ، فالنحوي يجب ان يكون لغويا دون العكس لانا نعرف لغويين كثيرين لا يعرفون الا النزر اليسير من النحو . ونحن لا نعني في هذا المقام بالنحوي من يأخذ النحو عن المشايخ ومن الكتب بعد ان تم امره ، ونضجت قواعده ، بل نعني به امثال ابي الاسود الدؤلي والخليل والكسائي واضرابهم من الائمة الذين وضعوا اساس هذا العلم واستنبطوا اصوله ، وفرعوا فروعه ، ورتبوا مسائله وبوبوها وفصلوها تفصيلا ، وبعبارة اخرى نحن انما نعنى بالنحاة هنا اولئك المجتهدين الذين تم على يدهم ابداع هذا العلم وانماؤه وتوسيعه وانضاجه لا المقلدين الذين لا شأن لهم الا معرفة ما وضعه اولئك الأئمة ودرس ما قرروه ، وعلى هذا لا مراء في ان اول واجب على من يتصدى للامامة فى النحو أن يتوسع فى معرفه اللغة كل التوسع والا فانه يكون مفلوج الاجتهاد.

وانما قدمنا هذه النبذة لنصل الى نتيجة واضحة وهي ان المجتهدين من النحاة هم انفسهم رواة اللغة الاولون ، ومنزلة النحوي في النحو تابعة لسعة إطلاعه فى اللغة ، فليس من الغرابة بعد هذا ان تسمو ا فى

هذا الباب ذكر كثير من مشاهير النحاة الاقدمين، ذلك لانهم لغويون قبل ان صاروا نحويين، فقد روى ان غلاماً كان يلم بابى الاسود الدؤلى يتعلم منه فتكلم يوماً بكلمة لم يفهم ابو الاسود مراده منها فسأله عنها فقال الغلام: هذا حرف من العربية لم يبلغك. فقال ابو الاسود: لا خير لك في ما لم يبلغنى منها يا ابن اخي. فأبو الاسود وهو رأس النحاة كان من اوسع الناس معرفة فى اللغة، حتى انهم زعموا انه كان يجيب في كلها.

فابو الاسود يعد رأسا فى اللغويين كما يعد رأسا فى النحويين على ما سيأتي من تاريخ علم النحو. ولم يطلق عليه المتقدمون اسم اللغوى لان هذا اللقب لم يكن معروفا اذ ذاك وانما شاع استعماله في اواخر القرن الثالث واوائل القرن الرابع عندما نضج كثير من فنون اللغة، وتمايزت فروعها، ولذلك كانت شهرة ابى الاسود فى النحو اوسع، وصيته فيه ابعد، اذ هو واضع اساسه، ومقرر سماعه وقياسه على انه في علماء العربية طبقة برأسها، وتخرج به جماعة اشهرهم:

١ — ولده عطاء وكان من متقدمي تلاميذ ابيه.

٢ — يحيي بن يعمر «على وزن يذهب» المدواني، كان من الادباء المعروفين، والرواة الاثبات المبرزين، وهو مع ذلك فقيه ورع تولى القضاء فى خراسان على عدان قتيبة بن مسلم القائد المشهور، وتوفي سنة ١٢٩ هـ.

٣ – نصر بن عاصم الليثي ، تلقى القرآن والعربية عن ابي الاسود وكان من نبهاء اصحابه وهو الذي روى عنه صحيفته في العربية المعروفة اذ ذاك بالتعليقة حتى قال بعضهم : ان اول اسناد علمي عرف في الادب هو اسناد نصر هذا الى ابي الاسود في تعليقته هذه . وقد الف نصر كتابا في العربية لم يصل الينا ، وقال بعضهم ان نصراً اخذ العربية عن يحيي بن يعمر واليهما يرجع الفضل في اعجام الحروف الهجائية وترتيبها على النمط المعروف اليوم (ا ، ب ، ت ، ث .. الخ) وكانت من قبل مهملة ومرتبة على النمط الابجدي كما سنبينه في تاريخ الخط ، وقد توفي نصر سنة ٨٩ ﻫ .

٤ – عنبسة بن معدان الملقب بالفيل ، قالوا لم يكن فيمن اخذ عن ابي الاسود ابرع منه ، حتى ان بعض تلاميذ ابي الاسود اخذ العربية عن عنبسة هذا لانه رأس اصحاب ابي الاسود من بعده ، وكان راوية للاشعار ظريفاً فصيحاً .

٥ – ميمون الاقرن ، اخذ العربية عن ابي الاسود ثم من بعده عن عنبسة الفيل ، ورأس علماء العربية بعد عنبسة .

هؤلاء انبه تلاميذ ابي الاسود الدؤلي ذكراً ، واعلاهم شأناً ، واذا اعتبرنا ابا الاسود طبقة برأسها فان خريجيه هؤلاء يعتبرون الطبقة الثانية .

واشهر من تلقى العربية عن هذه الطبقة :

١ – عبدالله بن زيد بن الحارث الحضرمي البصري ، قالوا ليس في اصحاب ميمون احد مثل عبدالله هذا ، وكان شديد التجريد للقياس وشرح العلل ، وقد املى كتاباً في الهمز ، وتوفي سنة ١٢٧ هـ عن ثمانٍ وثمانين سنة .

٢ – ابو عمرو بن العلاء بن عمار المازني، امام البصريين في القراءات والعربية ، فهو احد القراء السبعة المشهورين ، واعلم اهل زمانه في العربية والشعر ومذاهب العرب حتى نقل ابو الطيب اللغوي ان بعضهم كان يقول لم يؤخذ على ابي عمرو بن العلاء خطأ في شيء من اللغة الا في حرف واحد ، وقد كتب الشيء الكثير من منثور اللغة ومنظومها حتى قيل ان دفاتره كانت تملأ بيتاً الى السقف ، ولكنه تنسك في اخريات ايامه فاحرقها ، وتوفي سنة ١٥٤ هـ او ١٥٩ هـ .

٣ – ابو سفيان بن العلاء ، اخو عمرو بن العلاء اخذ عمن اخذ اخوه من رجال الطبقة الثانية ، وقد اخملته شهرة اخيه ، وتوفي سنة ١٥٦ هـ

واشهر من تلقى اللغة وآدابها عن هذه الطبقة :

١ – عيسى بن عمر الثقفي ، رأس المتقعرين من اللغويين ، اخذ العربية عن ابي عمرو بن العلاء ، وعبدالله بن زيد الحضرمي ، وروى عن

رؤبة بن العجاج ، وجماعة آخرين ، ولكثرة تعمقه في اللغة كان يغلب عليه الاغراب في الكلام، قيل انه سقط ذات مرة عن حماره ، فاجتمع اليه الناس، فنظر اليهم مغضبا وقال : « ما لكم تكأكأتم عليّ كتكأكئكم على ذي جنة افرنقعوا عنى » اي ما لكم تجمعتم حولي كتجمعكم على مجنون تنحوا عنى ، فقالوا : ان شيطانه يتكلم بالهندية ، وله امثال هذا شيء كثير ، وله في العربية كتابان احدهما سماه الاكمال والثاني الجامع والظاهر انهما لم يعيشا طويلا على كثرة ثناء تلاميذه عليهما ، قال الخليل :

ذهب النحو الذي القتم غير ما الف عيسى بن عمر

ذاك اكمال وهذا جامع فهما للناس شمس وقمر

وتوفى عيسى بن عمر سنة ١٤٩ ﻫ وقيل ١٥٠ ﻫ

٢ — يونس بن حبيب الضبي البصري ، اخذ العربية عن ابى عمرو ابن العلاء ، وعن كثير من العرب والأعراب ، وكان له حلقة بالبصرة ينتابها اهل العلم وطلاب الادب وفصحاء الاعراب ، وكان ممن ينتاب هذه الحلقة رؤبة بن العجاج ، وكان يونس يكثر من سؤاله عن غريب اللغة وهو يجيبه الى ان قال له ذات مرة : «حتام تسألني عن هذه الاباطيل وازخرفها لك اما ترى الشيب قد بلغ في لحيتك ؟ » يريد انه كان يكذب عليه في جواباته ، وكان يونس واسع الحفظ ، قال ابو عبيدة « اختلفت الى يونس اربعين سنة املأ كل يوم الواحي من حفظه »

وتوفى سنة ١٨٢ ﻫ وكانت ولادته سنة ٩٠ ﻫ

٣ – ابو الخطاب عبد الحميد بن عبد المجيد الملقب بالاخفش الاكبر، لقى الأعراب واخذ عنهم، واخذ عن ابي عمرو بن العلاء واهل طبقته، وبه تخرج جماعة من أئمة العربية المبرزين منهم سيبويه والكسائي وابو عبيدة، وهو اول من فسر الشعر تحت كل بيت، وكان الناس قبله يكتبون القصيدة كلها فاذا فرغوا منها فسروها.

٤ – ابو جعفر محمد بن الحسن الرؤاسي، عالم اهل الكوفة في زمانه، وهو اول كوفي الف في العربية، وكان اهل الكوفة يعظمون من شأنه ويزعمون ان كثيراً من علومهم وقراءاتهم مأخوذة عنه، حتى قيل ان كل ما جاء في كتاب سيبويه: قال الكوفى «كذا» انما يعني به الرؤاسي. وله مؤلفات في العربية منها: الفصيل وهو الكتاب الذي نقله الى البصرة في رحلته، والوقف والابتدا الكبير والصغير، ومعاني القرآن. ولم يصلنا شيء من كتبه.

٥ – ابو مسلم معاذ بن مسلم الهراء عم ابي جعفر الرؤاسي المتقدم، وهو اول من وضع علم التصريف وله كتب في العربية لم يطل عمرها كثيراً، وقد كان ولد في خلافة عبد الملك بن مروان وعمر طويلا حتى توفى سنة ١٨٧ وقيل سنة ١٩٠ هـ.

واشهر من تلقى اللغة عن هذه الطبقة والتي قبلها:

١ – ابو زيد سعيد بن اوس الانصارى الامام المشهور كان

احفظ الناس للغة ، واوسعهم رواية واوثقهم واكثرهم اخذاً عن البادية حتى قالوا : كان يجيب في اللغة . اخذ عن ابى عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر وابي الخطاب الاخفش ويونس بن حبيب وعن جماعة من ثقات الاعراب وعلمائهم . وكان جليل القدر ، رفيع المنزلة ، وتخرج به جماعة منهم سيبويه وكل ما جاء فى كتاب سيبويه : «اخبرني الثقة» او «حدثني من اثق بعربيته» فانما يريد ابا زيد هذا ، ولابي زيد تصانيف كثيرة سرد منها الجلال السيوطى في كتابه «بغية الوعاة» ثلاثين ونيفا ، توفى بالبصرة سنة ٢١٥ ه عن عمر يناهز ٩٣ سنة .

٢ — ابو سعيد عبد الملك بن قريب الاصمعي البصري ، وسنترجم له فيما بعد ترجمة مبسوطة .

٣ — ابو عبيدة معمر بن المثنى البصري الشعوبى الاخباري ، كان اعلم اهل زمانه بالانساب وايام العرب واخبارهم وعلومهم حتى كان يقول ما التقى فرسان في جاهلية ولا اسلام الا عرفتهما وعرفت فارسيهما قال الجاحظ : «لم يكن خارجي اعلم بجميع العلوم منه» ومن هذا يفهم انه كان يرى رأي الخوارج مضافا الى ما كان عليه من الشعوبية السمجة ، وكان يغلب عليه الغريب من اللغة ، ولهذا كان اول من الف في غريب الحديث ، وكان مع اتساع معرفته بلغة العرب وادبهم لا يحسن قراءة الشعر واذا انشد بيتا لم يقم اعرابه وينشده مختلف العروض ، وما ذلك

الا لانه يضرب بعرق الى اليهودية لان ابا المثنى جده كان يهوديا من يهود باجروان . ولأبى عبيدة مؤلفات كثيرة اشهرها : معانى القرآن ، وغريب القرآن ، وغريب الحديث ، والمثالب ، وايام العرب ، وطبقات الفرسان ، وخلق الانسان ، والخيل والابل ، ونقائض جرير والفرزدق وغيرها . وقد احصى له ابن النديم في فهرسته مائة مصنف ونيفا . ولد ابو عبيده سنة ١١٢ هـ وتوفى سنة ٢٠٩ هـ وقيل اكثر او اقل ...

٤ — خلف الاحمر البصري ، كان راوية للاشعار ، ونقادة لها ، وكان يعد من اضراب الاصمعي ، بل قيل هو معلم الاصمعي ، وهو والاصمعي فتقا المعاني واوضحا المذاهب ، وبينا المعالم . وكان الاخفش يقول : إنه لم يدرك احداً اعلم بالشعر من خلف والاصمعي ، وكان خلف شاعراً حاذقاً ماهراً في التقليد ، وقد وضع على كثير من شعراء العرب ، فكان يضع على كل شاعر ما يتلائم مع الفاظه واسلوبه ومعانيه ، فيشبه كل شعر يقوله بشعر الذي يضعه عليه ، وقد اخذ عنه اهل البصرة والكوفة ثم نسك في اخريات ايامه ، واقر بما كان يضعه فلم ينتفع باقراره هذا من انخدع له فى اول الامر ، وبقى ما وضعه مبثوثا في الدواوين ، وله من التصانيف كتاب جبال العرب وما قيل فيها من الشعر ، وله ديوان شعر حمله عنه ابنه تلاميذه ابو نواس وقد رثاه ابو نواس في حياته بارجوزة منها :

اودى جماع العلم مذ اودى خلف   من لا يعد العلم الا ما عرف
قليذم من العياليم الخسف   فكلما نشاء منه نغترف
رواية لا تجتنى من الصحف

وله فيه من قصيدة يرثيه بها فى حياته ايضا

وكان ممن مضى لنا خلفا   فليس منه اذ بان من خلف

وتوفى في حدود الثمانين والمائة .

٥ - الخليل بن احمد الفراهيدي : سيد اهل الادب وامام المصنفين فى لغة العرب ، وبه يبدأ الطور الثاني من اطوار الرواية المقرون بطور التأليف ، وسوف نترجم له فى غير هذا الموطن ، ولكنا نقول هنا : ان الخليل اول من دوّن اللغة ، ورتب الفاظها على حروف الهجاء ترتيباً لم يسبق اليه ، في كتابه المسمى « كتاب العين » وبكتابه هذا يفتح الطور الثاني وهو طور الرواية والكتاب .

طور الرواية والكتاب

نهج الخليل في جمع اللغة واستيعابها طريقة مبتكرة اخترعها لنفسه، واقتفى اثره فيها الجمّ الغفير ممن جاؤا بعده من اللغويين ، في ترتيب الحروف منهجاً خاصاً لم يمش عليه الناس من بعده ، وهو انه رتبها على حسب ترتيب مخارجها الطبيعية مبتدئاً من الحلق ذاهباً الى اللسان فالشفتين ، وجعل اولها العين ثم ما قرب مخرجه منها ، الارفع فالارفع حتى

اني على آخر الحروف .

ان للمؤلفين في اللغة اسلوبين : احدهما يبتدئ باللفظ وينتهي بالمعنى والثاني بالعكس ، مثال الاول ما اذا قيل : القطار : عدد من الابل مقطورة على نسق واحد ، والقطرُ : النحاس ، والقطر : الجهة والناحية ، والقطر : المطر . ومثال الثاني ما اذا قلت : ولد الناقة يسمى الحوار ، وولد الغزالة يسمى الخشف . والنوم الخفيف يسمى السنة ، فالذي يذهب من جانب اللفظ الى المعنى يرمي في الغالب الى تسهيل ايضاح معاني الكلام على السامع والقارئ ، فان من سمع كلاماً منظوما او منثوراً ، وغم عليه معاني بعض الفاظه فانه يرجع في ايضاح ذلك الى المعاجم المؤلفة على الطريقة الاولى ، فيجد فيها ضالته ، والذي يذهب من جانب المعنى الى اللفظ يرمي على الاكثر الى تسهيل انشاء الكلام على اللسان والقلم ، فان من تصور معنى اراد التعبير عنه وغاب عنه اللفظ الدال عليه يستعين على وجدانه بالكتب المؤلفة على الطريقة الثانية ، ومن ثم نجد اكثر الناس انتفاعاً بهذه الكتب اولئك الذين يعنون بترجمة الكلام الاجنبي لانهم يجدون امامهم من المعاني ما تحتاج الى قوالب من الفاظ لا تحضرهم فيرجعون الى هذه الكتب ليهتدوا بها الى بغيتهم ..

وانما المعنا الى هذا التقسيم لنبين ان مصنفي اللغة في هذا الطور انخزلوا الى فريقين : فريق سلك الطريق الاول وعلى رأسهم الخليل بن

احمد وفريق سلك الطريق الثاني وعلى رأسهم الاصمعي وابو زيد واضرابهما . فالخليل بن احمد اول من الف في اللغة على الاسلوب الاول، فهو ابو عذرته . نعم، لاينكر ان بعض معاصري الخليل الف بعض الشيء على هذا الاسلوب كأبي عبيدة فانه الف في غريب القرآن وغريب الحديث ، ولكن تلك التآليف في مواضع خاصة وابواب معينة ، وعلى غير ترتيب يعتد به ، فهي عبارة عن مجموع مباحث مبعثرة لا يضبطها ترتيب ولا يؤلف بينها نظام ، اما الخليل فانه نزع الى طريقة علمية لم يسبق اليها على ما ستقف عليه مفصلا عند الكلام على ترجمته .

فطور الرواية والكتاب يفتتح بذينك الاسلوبين من التأليف على ما عرفت . وقد رأينا ان نسمي الاسلوب الاول « المسلك اللفظي » : لان البدء فيه يكون بجانب اللفظ ومنه ينتقل الى جانب المعنى . والاسلوب الثاني « المسلك المعنوي » : لان البدء فيه يكون بجانب المعنى ومنه ينتقل الى جهة اللفظ .

ويتفرع عن كل واحد من هذين المسلكين فروع كثيرة رأينا ان نجملها في هذا المكان لئلا نضطر الى الرجوع اليها في مكان آخر فتنفك عرا البحث وتتباعد اواصره .

فروع المسلك اللفظي

سلك المؤلفون في ترتيب الالفاظ مسالك شتى لاعتبارات

مختلفة ، فمنهم من وجه همه الى ضبط اللغة واحصاء كلمها والتمييز بين مستعملها ومهملها كما فعل الخليل بن احمد في ترتيب كتاب العين وتبعه ابو بكر بن دريد فى جمهرته ، وقد علمت ان الخليل ابتكر اسلوبا فى احصاء مفردات اللغة لم يسبقه اليه سابق كما ابتكر طريقة خاصة فى ترتيب حروف الهجاء تنكب فيها الطريق الابجدي القديم ، والترتيب العلمي المعروف ، ومال الى الترتيب المخرجي الطبعي على ما اشرنا اليه آنفا واما ابن دريد فانه لم يزد على ما جاء به الخليل من الترتيب والتبويب شيئا يذكر ، ولذلك جاءت جمهرته مقاربة لكتاب العين على ما فيها من الفوائد والاوابد التي خلا منها كتاب العين .

وقد حذا حذو هذين الامامين ثالث هو ابو غالب تمام بن غالب المعروف بابن التياني القرطبي المتوفي سنة ٤٣٣ فانه وضع كتابا اتى فيه على ما فى كتاب العين من صحيح اللغة ، وزاد عليه ما زاده ابن دريد فى الجمهرة ، فصار كتابه هذا محتويا على الكتابين معا ، وسماه « فتح العين » وبعد فنحن نلقب هذا الترتيب « بترتيب الخليل » ويعتبر الفرع الاول من المسلك اللفظي . وآخر من سلك هذا المسلك - على ما نظن - ابو الحسن علي بن اسماعيل المعروف بابن سيده والمتوفى سنة ٤٥٨ ه فانه الف كتابه (المحكم والمحيط الاعظم) على ترتيب كتاب العين .

ومن اللغويين من وجه نظره الى ضبط مفردات اللغة مع الالتفات

الى تسهيل امر الحصول على المقصود فى المراجعة عند الحاجة ، فرتب الالفاظ معتبراً اواخر حروفها الاصلية ابوابا ، واوائل حروفها الاصلية فصولا ، كما فعل الجوهري في كتابه (صحاح اللغة) ،وتبعه مجد الدين الشيرازي في قاموسه وتبعهما خلق كثير .

ومن طبيعة هذا الترتيب ان يتألف الكتاب من ثمانية وعشرين بابا ، ينعقد كل باب منها من ثمانية وعشرين فصلاً على عدد حروف المعجم حسب ترتيبها التعليمي المشهور (ا ، ب ، ت ، ث الخ) الا ان يهمل فى بعض الابواب بعض الفصول لعدم ورود شيء فيه ، فاذا طلبت كلمة استقرى ، او تقرى ، او القيروان - مثلا - فانك تجدها كلها فى فصل القاف من باب الواو ، لان اصل مادتها (ق ، و ، ر) واذا طلبت السماء او الاسم او التسامي فانك تجدها كلها في فصل السين من باب الواو لانها كلها من مادة (س ، م ، و) ونحن نلقب هذا « بمسلك الجوهري » وهو الفرع الثاني من المسلك اللفظي . ومن المؤلفين من لم يلتفت الى حصر المفردات بوجه ، بل وجه كل عنايته الى تسهيل الحصول على المقصود عند البحث والمراجعة فبوب كتابه على ترتيب حروف الهجاء التعليمي واعتبر اصول اوائل الكلم ابوابا ، وما يليها من الحروف الاصلية ثم ما يتلوها فصولاً ، فتجد كلمة اسد قبل كلمة اسر ، وهذه قبل كلمة اسف ، وهذه كلها قبل كلمة اشر لان الشين بعد السين . واول من سلك هذا المسلك في الترتيب - على ما اظن - ابو الحسين احمد بن فارس المتوفي

سنة ٣١٠ هـ فى كتابه « المجمل فى اللغة » وتبعه الزمخشري فى كتابه « اساس البلاغة » وجاء بعده تلميذه ناصر بن عبدالسيد المطرزي المتوفي سنة ٦١٠ هـ فالف كتابه « المغرب في لغة الفقهيات » وسلك فى ترتيبه مسلك شيخه فى اساس البلاغة . وممن سلك هذا المسلك احمد بن محمد المقري الفيومي المتوفي سنه ٧٧٠ هـ فى كتابه « المصباح المنير » فى غريب الشرح الكبير ، وعلى هذا المسلك سار المؤلفون من المعاصرين .

والمؤلفون على هذا النمط يعتبرون من الكلمة حروفها الاصلية كما علمت فيضعون كلمة اتصل مثلا في باب الواو لانها من مادة « و ص ل » ومثلها إتأد ، واتسع ، واتكأ واتسق ، واتهم ، واتكل ، لانها من مادة « و ا د » ، « وس ع » « وك أ » ، « و س ق » ، « و هـ م » ، « وك ل » ويضعون كلمة تترى فى هذا الباب لان مادتها « و ت ر » وفي هذا ما فيه من العسر على الذين لا علم لهم بمبادىء اللغة واصول تصريفها ، ولهذا نرى ان توضع المعاجم على اسلوب تكون العبرة فيه لحروف الكلمة كلها ، سواء في ذلك الاصلية والزائدة ، وتوضع كلمة تترى مثلا في باب التاء والتاء وما يثلثها ، وكلمة اتقى فى باب الهمزة والتاء وما يثلثها وهكذا .

وقد سلك هذا المسلك من الاقدمين ياقوت الحموي في كتابه « معجم البلدان » فانه رتبه على هذا النمط غير ناظر الى اصول الكلمات فيضع كلمة « اسوره » ـ مثلا ـ في باب الهمزة والسين وما يليها ، واذا طلبتها فى المصباح تجدها في باب السين مع الواو وما يثلثها ، وفي هذا

عنت ليس بالهين . وعلى النمط السهل مشى مؤلفو معاجم الاسماء ، كابن خلكان في كتابه « وفيات الاعيان » وياقوت فى كتابه « معجم الادباء » وابن حجر العسقلاني في « الاصابه » فانك تجد فيها اسم « المعلى » مثلا فى باب الميم والعين وما يليها ، ولو طلبته فى القاموس لوجدته فى فصل العين من باب الواو ، او في المصباح لوجدته فى باب العين واللام وما يثلثهما .

ولم نجد من اللغويين من سلك هذا المسلك على ما فيه من تسهيل المراجعة على المراجعين ولا سيما اولئك الذين يتعسر عليهم تمييز اصول الكلمات من زوائدها .

فروع المسلك المعنوى

للمؤلفين الذين سلكوا هذا الطريق في تآليفهم مناهج شتى مرجعها كلها الى اصل واحد هو ترتيب المعاني حسب اجناسها وانواعها ، ثم توزيع كل نوع منها الى طوائف توضع كل طائفة منها تحت باب له عنوانه ، وتقسم هذه الابواب الى فصول يوضع تحت كل فصل منها جملة من المعاني المتآخية . فاذا اخذ جنس الحيوان مثلا نجده ينقسم الى انواع كثيرة منها الانسان ، والبحث عن الانسان يتوزع الى ابواب كثيرة يضم كل باب منها طائفة من شؤونه ، فمن اعضائه الى طعامه الى شرابه ، الى لباسه ، الى مسكنه ، الى سلاحه ، الى حركاته ، واطوار حياته

وسائر صفاته وتقلبات احواله . واذا اخذنا باب اللباس مثلا نجده ينطوي على فصول عديدة في النسج والخياطة والخيوط والابر ، وفي ضروب الثياب والوانها واشكالها، وفي ثياب الرجال والنساء والولدان، وفي الاكسية والفرش .. الخ . فاذا اخذت فصل الوسائد مثلا تجده يقول : المخدة والمصدغة : ما يوضع تحت الرأس ، والخرقة : هي التي تصف الى اخرى ، والمسند :ما يستند اليها ، والمشورة : ما يتكأ عليها .والمنبذة : ما يطرح للزائر وغيره . والحسبانة : ما صغر من الوسائد .. الخ .

ثم من المؤلفين من يذكر المعنى المفرد ويذكر اللفظ الدال عليه . كأن يقول : ما بين طرف الخنصر والابهام يسمى الشبر . وما بين طرف السبابة والوسطى يسمى الرتب . وما بين طرف الوسطى والبنصر يسمى العتب . وما بين طرف البنصر والخنصر يسمى البصم . وما بين كل اصبعين طولا فهو الفوت .

ومنهم من يذكر المعنى المركب ويردفه بالعبارة او العبارات الدالة عليه ، فاذا ذكر باب الخطيب والخطابة مثلا يقول : خطيب بسيط اللسان ، مصقول الخاطر ، ناصع البيان ، خلاب الالباب ، تنفجر ينابيع الحكمة على لسانه ، اذا افاض في كلامه ملك اعنة القلوب ، واستدر ماء الشؤون ، وقوم زيغ النفوس ... الخ .

واشهر من نهج المنهج الاول ابو منصور الثعالبي المتوفي سنة ٤٢٩ هـ في كتابه الموسوم «بفقه اللغة» .وابن سيده صاحب المحكم في

كتابه « المخصص » في ١٧ جزءاً . ويقال انه قد سبقهما الى هذا المنهج احمد بن ابان الاندلسي المتوفي سنة ٣٣٢ ﻫ في كتابه « العالم » بدأ فيه بالفلك وختم بالذرة فجاء في مائة مجلد .

وممن الف على النمط الثاني عبد الرحمن بن عيسى الهمذاني المتوفي سنة ٣٢٧ ﻫ ؛ الف « الالفاظ الكتابية » وقدامة بن جعفر المتوفي سنة ٣٣٧ ﻫ فقد وضع فيه كتابه الذي اسماه « جواهر الالفاظ » وهو كتاب ممتع .

المعاجم العامة والخاصة

ومن المعاجم ما هو عام في جميع ابواب اللغة وانواعها كالقاموس لمجد الدين الشيرازي والمخصص لابن سيده . ومنها ما هو خاص في باب من ابواب اللغة ونوع من انواعها . وهذا النوع كثير الفروع ـ على ما ستراه ـ ونحن نذكر بعض هذه الفروع في هذا المقام على سبيل المثال فمن ذلك :

(١) مفردات القرآن . (٢) ما جاء في القرآن بغير لغة العرب . (٣) ما جاء فى القرآن بغير لغة الحجاز . (٤) مبهمات القرآن . (٥) غريب الحديث . (٦) لغات الفقهاء . (٧) لغات بعض الكتب الفقهية . (٨) الاضداد . (٩) مثلثات اللغة . (١٠) لغات الشعر . (١١) النبات . (١٢) الشجر . (١٣) النخل والكرم . (١٤) خلق الانسان . (١٥) خلق

الفرس . (١٦) الانواء . (١٧) الرياح . (١٨) الابل . (١٩) الشاء . (٢٠) السلاح . (٢١) الفصيح . وغير ذلك مما يطول شرحه ويتعسر استقصاؤه ، وفي كل من هذه الانواع كتب كثيرة ، سيمر بك طرف منها ان شاء الله تعالى .

الطبقة السادسة

وبعد إجمال ما استطردنا اليه من تنويع مسالك المؤلفين من اللغويين نرجع الى ما كنا بصدده من تتبع طبقات اللغويين واستقراء سلاسلهم حلقة حلقة فنقول : اشهر من تلقى العربية عن طبقة الخليل :

١ — ابو بشر عمرو بن عثمان المعروف بسيبويه ، المتوفى سنة ١٨٠ﻫ وسنترجم له في النحويين لاشتهاره بكتابه الذي يلقب بـ « قرآن النحو »

٢ — النضر بن شميل — اخذ عن الخليل ، ثم رحل الى البادية وضرب في كبد الجزيرة واخذ عن اعرابها وعربها . فيقال انه اقام في البادية اربعين سنة . وكان علماً من اعلام العربية ، وله مؤلفات منها : كتاب الجيم ، غريب الحديث ، الشمس والقمر ، السلاح ، الانواء ، المدخل الى كتاب العين . وتوفى سنة ٢٠٣ ﻫ .

٣ — حماد بن سلمة الامام المشهور اخذ عن عيسى بن عمر وعن الخليل وغيرهما ، وكان رأساً في العربية والبلاغة توفى سنة ١٦٧ ﻫ .

٤ — يحيي بن المبارك اليزيدي ، اخذ عن عمرو والخليل . وكان

احد القراء الفصحاء العالمين بلغة العرب وادابها ، وهو احد اشياخ المأمون . ومن تآليفه : كتاب النقط والشكل ، والمقصور والممدود ، والنوادر ، وتوفى سنة ٢٠٢ ﻫ .

٥ — ابو فيد المؤرج بن عمرو السدوسي ، أحد أئمة الادب المتوسعين في لغة العرب . قدم من البادية واقام بالبصرة فحذق مقاييس العربية على اشياخها كأبي عمرو بن العلاء ، وابي زيد الانصاري ، والخليل بن احمد ، وله من المؤلفات فى اللغة : غريب القرآن ، الانواء ، المعاني ، وغيرها ، توفى سنة ١٩٥ ﻫ .

٦ — علي بن سلام الجمحي ، احد اعلام الادب اخذ عن خلف الاحمر ويونس بن حبيب وغيرهما ، وهو احد نقدة الشعر الافذاذ ، والرواة الاثبات ، وله كتاب غريب القرآن ، توفي سنة ٢٣١ ﻫ .

٧ — ابو الحسن عليّ بن حمزة الكسائي ، رأس الكوفيين ، وامام اللغويين وسنترجم له فى النحويين .

٨ — علي بن نصر الجهضمي صحب الخليل واخذ عنه ، وهو من رفقاء سيبويه ، توفي سنة ١٨٧ ﻫ .

٩ — المفضل بن محمد الضبي الكوفي صاحب المفضليات ، كان من علماء الشعر ورواة الادب المكثرين .

١٠ — صالح بن اسحاق الجرمي ، اخذ عن الاخفش ويونس

والاصمعي وابي عبيدة . وله كتب منها : كتاب الابنية وغريب سيبويه وغيرهما . توفي سنة ٢٢٥ هـ .

١١ — عبدالله بن محمد التوزي ، اخذ عن الاصمعى وابي عبيدة ، وبرع في فنون الادب ، وله كتاب : الخيل ، والأمثال ، والاضداد ، توفى سنة ٢٣٣ هـ .

واشهر من تلقى العربية عن هذه الطبقة :

١ — محمد بن المستنير المعروف بقطرب ، لازم سيبويه ويونس ابن حبيب ، واخذ عن عيسى بن عمر ، وبرع في العربية. ولـكن الرواة يغمزونه ويطعنون فى روايته ، وله مؤلفات جمة منها : المثلث (وهو ما جاء بالحركات الثلاث من الالفاظ سواء كان لمعنى واحد ،مثل : ذروه ، رغوه .او لمعاني مختلفة مثل: قَطر ،قِطر ،قطر) . والنوادر ، والاضداد وخلق الانسان ، وخلق الفرس ، والمصنف الغريب . وغيرهـا ، وتوفى سنة ٢٠٦ هـ .

٢ — يحيي بن زياد الفراء تلميذ الـكسائي واحد اعلام اللغويين من الـكوفيين ، وله مصنفات كثيرة منها : معاني القرآن ، المصادر فى القرآن ، آلة الـكتاب . النوادر ، المقصور والممدود ، الحدود ، وتوفى سنة ٢٠٧ هـ .

٣ — ابو عبيد القاسم بن سلام، الاديب المتفنن، كان اماماً فى معارف شتى ، اخذ عن ابى زيد ، وابى عبيدة ، والاصمعي ، واليزيدي ، وابن

الاعرابي ، والكسائي وغيرهم . وكان مصنفاً حسن التصنيف ، ترك نيفاً وعشرين مصنفاً منها : الغريب المصنف ، غريب القرآن ، غريب الحديث ، معاني القرآن ، الامثال السائرة ، المقصور والممدود ، وغيرها . توفي سنة ٢٢٣ هـ .

٤ – محمد بن زياد الاعرابي ، احد أئمة الرواة الكوفيين ، واعلام اللغويين المبرزين ، حتى قالوا : لم يكن احد من الكوفيين اشبه رواية برواية البصريين منه ، وكان واسع الحفظ جداً ، قال ثعلب لزمته بضع عشرة سنه ما رأيت بيده كتاباً قط ، وما اشك في انه املى على الناس ما يحمل على اجمال ، وله كتب كثيرة منها : النوادر ، الانواء ، صفة النحل ، صفة الدرع ، الخيل ، معاني الشعر ، النبات ، النبت والبقل ، الامثال وغيرها توفي سنة ٢٣٠ هـ .

٥ – ابو الحسن سعيد بن مسعدة الاخفش الاوسط تخرج بسيبويه ، وكان احفظ اصحابه واحذقهم ، وله من المؤلفات : معاني القرآن ، والاشتقاق والمسائل الكبير والصغير ، والاصوات . وكتب اخرى توفي سنة ٢١٠ هـ وزعم البصريون ان الكسائي قرأ عليه كتاب سيبويه سراً .

٦ – ابو اسحاق ابراهيم بن سفيان الزيادي احد الرواة المتوسعين ، والادباء المطبوعين ، اخذ عن سيبويه ، وروى عن ابي عبيدة والاصمعي

ومن تآليفه كتاب : النقط والشكل ، والامثال ، والسحاب ، والرياح ، والامطار ، توفي سنة ٢٤٩ هـ .

٧ — ابو عثمان بكر بن محمد المازنى ، احد فضلاء الناس وكبار رواتهم ، وحذاق مناظريهم ، روى عن جماعة منهم ابوعبيدة والاصمعي وابو زيد والجرمي والاخفش الاكبر ، واكثر مصنفاته فى النحو والتصريف توفي سنة ٢٤٩ هـ .

٨ — ابو الفضل العباس بن الفرج الرياشي ، احد علماء الناس باللغة والشعر ، روى عن الاصمعى وغيره وقرأ النحو على المازنى كما قرأ عليه المازني اللغة ، ومن مؤلفاته : كتاب الخيل ، الابل ، ما اختلفت اسماؤه من كلام العرب ، توفى سنة ٢٥٧ هـ .

٩ — ابو حاتم سهل بن محمد السجستاني البصري ، كان اماما في علوم القرآن واللغة والشعر واخبار الناس ، روى عن ابي عبيدة والاصمعي وابي زيد وغيرهم ، وله مؤلفات كثيرة منها : المقصور والممدود ، الوحوش ، الطير ، خلق الانسان، وغيرها ، وكانت كتبه في غاية من الاتقان والامتاع . توفي سنة ٢٥٠ هـ .

١٠ — عبدالرحمن بن عبدالله بن قريب ابن اخى الاصمعي ، كان يروي عن عمه الشيء الكثير ، وربما حكى عنه ما يجده في كتبه من غير ان يكون قد سمعه من لفظه .

١١ – ابو نصر احمد بن حاتم الباهلي، صاحب الاصمعي ويزعم بعضهم انه ابن اخته وليس هذا بثابت، وروى عن ابى عبيدة، واكثر الرواية عن ابي زيد وله من المؤلفات: النبات والشجر، واللبأ واللبن، الخيل، الطير، الجراد، اشتقاق الاسماء، وغير ذلك. توفى سنة ٢٣١ هـ.

١٢ – ابو عمر اسحاق بن مِرار الشيباني الكوفي راوية اهل بغداد في عصره، كان واسع العلم باللغة عالما فاضلاً. اخذ عن الكسائي وغيره، واخذ عنه خلق كثير، وله من المصنفات: النوادر، كتاب الجيم، الغريب المصنف، غريب الحديث، الخيل، اشعار القبائل، خلق الانسان، وغيرها، توفى سنة ٢٠٦ عن مائة وعشر سنين.

١٣ – علي بن الحسن الاحمر شيخ العربية في زمانه، صحب الكسائي واخذ عن غيره، وكان بارعا في النحو والحفظ حتى قيل انه يحفظ اربعين الف شاهد فى النحو، وله كتب جاها في التصريف والنحو. توفي سنة ١٩٤ هـ.

١٤ – علي بن حازم اللحيانى الكوفى، لازم الكسائي وقرأ عليه كثير ممن في طبقته، وله كتاب النوادر.

١٥ – ابو محمد عبدالله بن سعيد الاموي، اخذ عن الكسائي ومن فى طبقته، اخذ عنه جماعة، وله كتاب النوادر وغيره.

واشهر من تأتى على هذه الطبقة:

١ - ابو العباس محمد بن يزيد المبرد امام اهل العربية فى زمانه واديبهم ، اخذ عن المازنى والسجستانى والجرمي ، وتخرج به خلق كثير ، وكان قوي الذاكرة فصيحا مفوها واخباريا ظريفا ، حتى كان الناس بالبصرة يقولون : ما رأى المبرد مثل نفسه ، وله كثير من المؤلفات منها : معانى القرآن والاشتقاق والمقتضب ، وما اتفق لفظه واختلف معناه ، ويعد فى مقدمة تآليفه الكامل وهو احد اركان الأدب عند اهل الادب وتوفي سنة ٢٨٥ هـ .

٢ - ابو العباس احمد بن يحيي البغدادي المشهور بثعلب امام الكوفيين فى النحو واللغة لازم ابن الاعرابى واخذ عن محمد بن سلام الجمحي وغيره ، وقد انتهت اليه رئاسة الكوفيين فى العربية كما انتهت رئاسة البصريين الى المبرد ،وكانت بينهما منافرات مشهورة ، ومعارضات مذكورة ، حتى اصبحا مثلا فى شدة التمادي ، قال الشاعر :

فابداننا فى بلدة والتقاؤنا   عسير كأننا ثعلب والمبرد

ولثعلب تصانيف اكثرها في النحو والتصريف ، منها فى اللغة : معانى القرآن ، معانى الشعر ، الفصيح وهو اشهرها ، وينسبه بعضهم لغيره ، والصحيح انه له ، توفي سنة ٢٩١ هـ .

٣ - ابو عثمان سعيد بن هارون الاشناندانى ، اخذ عن المازنى والجرمي ومن فى طبقتهما واختص بالتوزي ، وله كتب كثيرة منها كتاب المعانى .

٤ ـ يعقوب بن اسحاق السكيت : احد اعلام الكوفيين اخذ العربية عن البصريين والكوفيين ، وممن اخذ عنهم ، الفراء وابو عمرو الشيباني ، وابن الاعرابي وغيرهم ، وكان واسع العلم باللغة والشعر وله تصانيف كثيرة في النحو ومعاني الشعر وشروح دواوين العرب ، وزاد فيها على من تقدمه الشيء الكثير ، ويذكر في مقدمة تأليفه اصلاح المنطق ، وهو مطبوع متداول ، توفي سنة ٢٤٤ هـ .

٥ ـ عمرو بن ابي عمرو الشيباني الكوفي احد كبار اللغويين من الكوفيين توفى سنة ٢٣١ هـ .

٦ ـ ابو جعفر محمد بن حبيب الكوفى احد علماء اللغة المعروفين ورواة الاخبار الموصوفين اخذ عن قطرب وابن الاعرابي له : غريب الحديث ، الانواء ، الشجر ، نقائض جرير والفرزدق . المختلف والمؤتلف في اسماء القبائل . الخيل ، النبات ، وغيرها توفى سنة ٢٤٥ هـ .

٧ ـ ابو الحسن علي بن المغيرة الاشرم الكوفى ، له مؤلفات في العربية اكثرها في النحو ، وله كتاب في غريب اللغة .

٨ ـ ابو سعيد الحسن بن الحسين السكرى كان بارعاً فى فروع اللغة المختلفة ، راوية ثقة مكثر ، اخذ عن السجستاني والرياشي وغيرهما ، واخذ عنه خلق كثير ، وانتشر عنه من كتب الادب ما لم ينتشر عن احد من نظرائه وله مصنفات كثيرة منها : النبات والوحوش . وجمع اشعار جماعة من الشعراء منهم امرؤ القيس ، والنابغة الذبياني ، وزهير ،

ولبيد، والنابغة الجعدي، وغيرهم كما جمع شعر عدة قبائل من العرب منها، شعر هذيل، وبنى شيبان، وبني يربوع، وبنى ضبة، والازد، وبنى نهشل وغيرهم، وتوفي سنة ٢٧٥ ه.

٩ — عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري نزيل بغداد، احد اعلام اللغويين، وكبار المصنفين، ورجال الاخبار المتوسعين، ومن مؤلفاته: غريب القرآن، معاني القرآن، الخيل، خلق الانسان، الانواء غريب الحديث وغيرها توفى سنة ٢٦٧ ه.

ومن اشهر من تلقى عن هذه الطبقة:

١ — ابو اسحق ابراهيم بن السري الزجاج، لازم المبرد واخذ عنه معظم علمه، فخرج فاضلا، له جملة مؤلفات منها: معاني القرآن، خلق الانسان، فعلت وافعلت، الاشتقاق، النوادر، وله كثير غيرها. توفى سنة ٣١١ ه.

٢ — ابو بكر بن السراج.

٣ — ابو بكر بن دريد وسنترجم له.

ومن اشهر تلاميذه، وحاملي لواء علمه، ابو علي اسماعيل بن القاسم البغدادي المشهور بالقالى، كان احفظ اهل زمانه للغة وآدابها وله كتاب البارع فى اللغة والنوادر والامالي وهي احد اركان الادب توفي سنة ٣٥٦ ه.

ومنذ انفجر فجر هذه المائة ـ المائة الرابعة للهجرة ـ اخذ ظل

الروايه يتقاص وشأنها يتضاءل شيئاً فشيئاً ، واخذ امر الاعتماد على الكتاب يقوى ويتوسع ، واخذ القلم يحتل المكانة التي كانت تحتلها الحافظة ، وقد اخرج اقطاب اللغويين للناس فى هذا العصر اسفاراً جليلة تعد في الطليعة من دواوين اللغة التي عليها يعول ، واليها يرجع . ومن اشهرها :

١ – الجمهرة لابى بكر بن دريد المتوفي سنة ٣٢١ ه المتقدم ذكره.

٢ – البارع لابى علي القالي المتقدم .

٣ – مختصر العين لابى بكر محمد بن الحسن الزبيدي المتوفى سنة ٣٧٩ ه .

٤ – كتاب العشرات لابي عمرو المعروف بغلام ثعلب المتوفي سنة ٣٤٥ ه ،وقد جمع فيه المعاني التي تترادف على كل معنى منها عشرة الفاظ

٥ – ديوان الادب لابى اسحاق بن ابراهيم الفارابى المتوفى سنة ٣٥٠ ه خال الجوهرى صاحب الصحاح . وهو كتاب مؤلف من ستة كتب (١) فى السالم (٢) في المضاعف (٣) فى المثال (٤) ذوات الثلاثة (٥) ذوات الاربعة (٦) الهمزة .

٦ – التهذيب لابى منصور محمد بن احمد الازهري المتوفى سنة ٣٧٠ ه ، وهو من اجل المعاجم ، واغزرها مادة ، وقد تقدم انه مرتب على نمط كتاب العين .

٧ – غريب الالفاظ التي استعملها الفقهاء للازهري ايضاً .

٨ — المحيط للصاحب بن عباد المتوفي سنة ٣٨٥ ه‍، وهو فى سبعة مجلدات فقد معظمها .

٩ — المجمل لابن فارس المتوفي سنة ٣٩٠ وقد تقدم ذكره .

١٠ — الصحاح للجوهري المتوفى سنة ٣٩٨ ه‍ وقد وصفناه فى دروس اصول اللغة .

وبالجملة فانه ما كاد ينطوي بساط هذه المائة حتى ازدحمت المكتبات بمئات المؤلفات فى هذا العلم ،حتى حكى عن الصاحب بن عباد المذكور آنفاً ان بعض الملوك ارسل اليه يسأله القدوم عليه ، فقال له في الجواب : احتاج الى ستين جملاً انقل عليها كتب اللغة عندي ، ومهما كان فى هذا القول من المبالغة فانه يدل على غزارة مادة التأليف اذ ذاك فى هذا العلم ، قال الجلال السيوطي بعد ان نقل هذه الحكاية : وقد ذهب جل هذه الكتب في الفتن الكائنة من التتار وغيرهم .

ومن اشهر ما جادت به اقلام اقطاب اللغة في المائة الخامسة من جليل المعاجم :

١ — الجامع ، لابى عبدالله محمد بن جعفر التميمي المعروف بالقزاز المتوفى سنة ٤١٢ ه‍ .

٢ — الموعب لابى غالب تمام بن غالب المعروف بالتياني المتوفى سنة ٤٣٦ ه‍ .

٣ — المحكم والمحيط الاعظم لابن سيده المتوفى سنة ٤٥٨ ه وقد تقدم ذكره .

ومن اشهر ما الف في هذه المائة على المسلك اللغوي :

١ — فقه اللغة لابي منصور الثعالبي المتوفي سنة ٤٢٩ ه .

٢ — المخصص لابن سيده وهو اجل ما الف في بابه على الاطلاق .

وما كادت تدخل المائة السادسة حتى لم يبق للرواية شأن يذكر وصار اعتماد الناس على الكتب يتدارسونها ويعنون بضبطها وتحقيق ما فيها على الاشياخ ، وغبروا على ذلك زمناً الى ان فترت الهمم فاخذوا يقرؤن الشيء من الكتاب ويستجيزون رواية الباقي من غير قراءة . وغبروا على هذا زمنا فصاروا يكتفون برواية الكتاب او الكتب من غير ان يقرؤا شيئا على المجيز ، وهكذا حتى لم يبق للضبط والتحقيق ، ومن ثم كثر التصحيف والتحريف في كتب المتأخرين مما لم يعهد عشر معشاره في كتب الاقدمين .

ومن اشهر معاجم اللغة في المائة السادسة :

١ — تهذيب اصلاح المنطق لابي زكريا التبريزي المتوفي سنة ٥١٢ هذب فيه كتاب اصلاح المنطق لابن السكيت ، وفسر الغامض منه واصلح ما رآه فيه من الخطأ .

٢ — مفردات القرآن لابى القاسم الحسين المشهور بالراغب

الاصفهاني المتوفى سنة ٥٠٢ ﻫ وهو اجل ما الف ، غاية في التحقيق وحسن الترتيب والتبويب .

٣ — السامي في الاسامي لابى الفضل احمد بن محمد الميدانى صاحب مجمع الامثال المتوفى سنة ٥١٨ ﻫ

٤ — شمس العلوم ودواء العرب من الكلوم لنشوار بن سعيد الحميري المتوفي سنة ٥٧٣ ﻫ وهو من احسن المعاجم شرحا للمعاني وايضاحا للمقاصد والمبانى .

٥ ـ اساس البلاغة لابى القاسم محمود بن عمر الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨ ﻫ وهو احسن كتاب الف في بابه ، ويشرح فيه الالفاظ بادخالها في جمل هي غاية في البلاغة ، ويفصل استعمال الالفاظ على وجه الحقيقة ثم على وجه المجاز ، ولو كان فيه شيء من التوسع لما فضله معجم من المعاجم التي سلك فيها مؤلفوها المسلك اللفظي .

٦ ـ الفائق في غريب الحديث للزمخشري المذكور .

٧ ـ كتاب الامكنة والجبال والمياه له ايضا .

ثم دخلت المائة السابعة ومن اشهر ما أخرجه فيها المؤلفون من المعاجم :

١ ـ المغرب في ترتيب المعرب لناصر الدين المطرزي المتوفي سنة ٦١٠ ﻫ وهو كتاب جمع فيه المؤلف ما يستعمله الفقهاء من الالفاظ التي تحتاج الى تفسير .

٢ - كفاية المتحفظ لابى اسحاق بن الاجدابي المتوفي في مفتتح السنة السابعة ، وكتابه هذا مرتب على المسلك المنوي على نمط فقه اللغة للثعالبي .

٣ - العباب الزاخر واللباب الفاخر ، لرضى الدين الصغاني المتوفي سنة ٦٥٠ ه وهو كتاب غزير المادة وصل فيه المؤلف الى باب الميم ولم يتمه ، وقد جاء ما تم منه في ٢٠ جزءاً وله :

٤ - كتاب التكملة والذيل والصلة جمع فيه ما فات الجوهري وكتابه هذا واسماه ...

٥ - مجمع البحرين جاء في اثنى عشر مجلداً ، وله .

٦ - كتاب الاضداد جمع فيه الالفاظ تدل على الشيء وضده .

واشهر المعاجم التي جادت بها اقلام اللغويين في المائة الثامنة :

١ - لسان العرب لابى الفضل محمد بن مكرم الافريقي ويعرف بابن منظور المتوفى سنة ٧١١ ه . وهذا المعجم من اوثق المعاجم واجدرها بالاعتماد وهو من اوسع ما وصل الينا من المعاجم المعتبرة .

٢ - المصباح المنير في غريب الشرح الكبير لاحمد بن محمد المقرى الفيومي المتوفى سنة ٧٧٠ ه شرح فيه ماجاء من غريب الالفاظ في شرح الوجيز في فقه اللغة الشافعية للرافعي فهو من قبيل كتاب المغرب في ترتيب المعرب للمطرزي . قال في آخره : وكنت جمعت اصله من نحو سبعين مصنفا ما بين مطول ومختصر .

٣ـ مختار الصحاح لمحمد بن ابي بكر بن عبدالقادر الرازي اقتصر فيه على ما لا بد منه فى الاستعمال ولا سيما ما يحتاج اليه فى شرح غريب بعض الآثار وضم اليه كثيراً من تهذيب الازهري وغيره .

ثم دخلت المائة التاسعة وفيها الف مجد الدين الفيروزبادي الشيرازي كتابه الذي اسماه « القاموس المحيط والقاموس الوسيط الجامع لما في كلام العرب من شماطيط » واشتهر باسم القاموس ، وقد كان مؤلفه جعله مقدمة لمعجم واسع وسمه باللامع المعلم العجاب الجامع بين المحكم والعباب يجيء في ستين سفراً كما اشار الى ذلك مؤلفه في خطبة القاموس ، ولشهرة القاموس اخذ كثير من مؤلفي المعاجم ولا سيما الأعاجم منهم يطلقون هذا الاسم على كل ما يؤلف في اللغة من الاسفار حتى صار اسم القاموس عندهم مرادفا لكلمة المعجم ، ولبعد صيته كثرت عليه الشروح والحواشي والتعاليق واحاطه النقاد من كل جانب فاكثروا من القول فيه ، له او عليه . ولم يزل الامر بين الاخذ والرد الى ان جاء ابو الفيض السيد مرتضى الزبيدي الحسني المتوفي سنة ١٢٠٥ﻫ فالف كتابه الجليل الذي وسمه باسم « تاج العروس في شرح القاموس » جمع فيه زبدة ما في معاجم اللغة المعتبرة من الالفاظ باسلوب سهل وعبارة واضحة . وكتابه هذا يعتبر آخر ما الف في هذا العلم من المعاجم الموثوق بها والمعتمد عليها . وقد طبع فجاء في عشرة اسفار ضخام .

هذا وقد الف جماعة من المعاصرين معاجم افرغوا جهدهم في

تسهيل مواردها على المراجعين ، ولكن مادتهم اللغوية قصرت بهم عن الوصول بهذه المعاجم الى الدرجة التي تكون فيها موضع الثقة والاعتماد عند المحققين من اللغويين لهذا العهد . وهذه المعاجم معروفة متداولة لا حاجة بنا الى التوسع في شأنها .

هذا وقد كنا ذكرنا ان من المعاجم ما هو عام في جميع ابواب اللغة كالصحاح والقاموس . ومنها ما هو خاص في موضوع كغريب القرآن والحديث ومثلثات الكلام والاضداد وغيرها . ولما كان للقرآن الكريم والكلام النبوي المكان الاسمى في انهاض اللغة والرفع من شأنها رأينا ان نلم بتاريخ هذين الفرعين على سبيل الاجمال .

مفردات القرآن

ولا نقول غريب القرآن لأن مدارسة القرآن على السن الملايين من الناس منذ بدء الوحي الى هذا العهد اخذت على الغرابة مجامع السبل فلم تجد اليه سبيلا ولا نجد لفظة من الفاظه غير مألوفة الاستعمال ومعروفة المعنى واضحة المغزى . وهل الغرابة فى الالفاظ الا كونها غير اليفة فيحتاج الى معرفتها الى التنقير عنها في مطاوي المعاجم المبسوطة وقديما عدوا الغرابة من عيوب الفصاحة فانى لنا ان نلصقها ببعض الفاظ القرآن وقد اجمع الاولون والآخرون على انه افصح كلام عرفته اللغة العربية منذ كانت في المهد الى هذا العهد .

هذا ولسنا بحاجة الى بيان ما للقرآن من اليد المشكورة والفضائل المذكورة على لغة العرب ، لأن هذا من اوائل البديهيات ، فلقد كان القرآن ولا يزال المعين الفياض لعلماء اللسان يردونه ظماء ويصدرون عنه رواء . ومن ثم توافروا على ضبط مفرداته وتحرير لغاته واستقصاء حقائقه ومجازاته ، وتصاريحه وكناياته ، ودقائقه ونكاته ، وذلك لان الناحية اللسانية هي اول ما يستقبل طالب علوم القرآن من القرآن ، ولهذا رأينا علماء الدين وطلاب اليقين يسيرون فى هذه الناحية الى جنب علماء اللغة كتفا لكتف فاسفر هذا التآزر عن احسن النتائج واعظم الفوائد . ولا نذيع سراً اذا قلنا ان مفردات القرآن كتراكيبه هي لب لباب كلام العرب وصفوة الصفوة منه وانها معتصم المتأدبين ، ومرجع العلماء المحققين بل مثابة امراء القول من المتقدمين والمتأخرين ، ولله شيخ المعرة حيث يقول في عرض كلام له في رسالة الغفران « اجمع ملحد ومهتدي وناكب عن الحجة ومعتدي ، ان هذا الكتاب الذي جاء به محمد (ص) كتاب بهر بالاعجاز ، واتى عدوه بالارجاز ، ما حذى على مثال ، ولا اشبه غريب الامثال ... وان الآية منه او بعض الآية لتعترض في افصح كلم يقدر عليه المخلوقون فتكون كالشهاب المتلألئ فى جنح غسق ، والزهرة البادية في جدوب ذات نسق » .

ولا مرية فى ان القرآن كان يخاطب العرب على وفق مناهجهم في

مخاطباتهم وخطاباتهم ، وتفاهمهم في افرادهم وجماعاتهم . وكان الصحابة يعرفون اكثر ما يرمي اليه من المعاني ويومي اليه من المغازي . واذا غم عليهم شيء من ذلك فزعوا الى الرسول الكريم ، فينير اليهم السبيل ، واكثر ما يكون تساءلهم عن الكلمات التي تصرف القرآن في اوضاعها وحولها عن مجاريها الاعتيادية الى معاني جديدة لم تكن من مألوف القوم قبلا مثل القرآن والايمان والكفر والصلاة والزكاة بمعانيها الشرعية ، وقد غبر الناس على هذا حياته ، ثم مدة حياة اصحابه من بعده . الى ان فتح على العرب ممالك العجم واختلطوا بحمرائها وصفرائها وبيضائها وسودائها ، ومن ذلك اخذ الناس يدخلون في دين الله افواجاً من بين فارسي ورومي ونبطي وحبشي وغيرهم من مختلف الالوان التي دانت لسلطان الفاتحين ، فاختلط القوم بالقوم بالمساكنة والمجاورة والمخالطة والمصاهرة والمصاحبة والمتاجرة ، وبذلك تداخلت اللغات ونشأت ناشئة من صميم العرب فى احضان هذا التبلبل ، فجاءت مختلفة السلائق ، مضطربة الالسنة ، كما نبتت نابتة من ابناء الاعاجم لقنت من العربية ما يسد حاجتها فى المخاطبات والمحاورات ، ومن هنا ذر قرن لغة امشاج لاهي بالعربية الصافية ولا العجمية الصرفة ولم تنشأ هذه اللغة أن ملكت الهجين من السنة الدهماء واحتلت مكانة ضيقت فيها على المعربة انفاسها . وما كاد ينطوي بساط المائة الاولى للهجرة حتى بدت وجوه الاختلال سافرة ، وظهر الاضطراب في عمود اللغة كل الظهور .

ومن هنا شعرت جمهرة القوم بمسيس الحاجة الى الاستفسار عن كثير من الفاظ القرآن الكريم واستجلاء معانيها التي كان اسلافهم يدركون مراميهم بحكم سلائقهم ، لانها من نوع ما كانوا به يتفاهمون وعلى نمط ما به ينثرون وينظمون . ولما رأى عقلاء الامة واهل العلم استرسال امر الاختلال وتفاقم الاضطراب والاختبال - استفزتهم الحمية واهابت بهم الغيرة ، فانصرف فريق منهم لرأب الصدع ، وسد الثغر . واول من بلغنا انه جمع شيئا في تفسير بعض مفردات القرآن ابو عبيدة معمر بن المثنى المتوفى سنة ٢٠٩ فقد ذكروا انه الف فى هذا كتابا اسماه « المجاز في غريب القرآن » وآخر اسماه « معانى القرآن » والمراد بمعاني القرآن تفسير مفرداته ، وهو اصطلاح معروف عند المتقدمين ، وحيث رأيت في كتاب علوم القرآن « قال اهل المعاني » فالمراد بهم مصنفوا الكتب فى مفردات القرآن ، ونجد في فهرس كتب الاصمعي كتابا اسمه « غريب القرآن » والاصمعي من معاصري ابي عبيدة وتأخر عنه قليلا .

ثم اقبل اهل العلم على التأليف في هذا الموضوع حتى لا يكاد يقع نظرك على فهرس من فهارس أئمة اللغة الا وتجد صدره متحليا باسم كتاب فى هذا المعنى . منهم الزجاج والفراء ومحمد بن القاسم الانباري وابو عمر الزاهد وابن دريد وغيرهم خلق كثير . وكان من اجمعها كتاب

ابي عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة ٢٢٣ . وكانت الكتب المصنفة في هذا الفرع عارية من الترتيب غفلاً من التبويب . وكانت بالمعاجم اللغوية اشبه منها بالكتب ذات الفصول والابواب ، واستمر الامر على ذلك الى ان جاء ابو بكر محمد بن عزيز السجستاني المتوفي سنة ٣٣٠ ه فألف كتابه المشهور « نزهة القلوب » ورتبه على حروف المعجم ترتيباً لم يسبق اليه فبدأ بالهمزة المفتوحة وثنى بالمضمومة وثلث بالمكسورة . وهكذا فعل بسائر حروف المعجم على الترتيب المشهور ، وهذا الكتاب على صغر حجمه من اتقن ما الف من نوعه وقد قيل انه اقام في تأليفه خمس عشرة عاماً يحرره هو وشيخه ابو بكر بن الانباري . وكان يتعهده بالتصحيح والتجويد بين حين وآخر .

ولم تزل التآليف في هذا الباب آخذة في الاتساع من حيث الكمية والاجادة من حيث الكيفية الى ان جاء ابو عبيد احمد بن محمد الهروى المتوفي سنة ٤٠١ ه وصنف كتاباً كبيراً جمع فيه بين غريب القرآن والحديث ورتبه على حروف المعجم فاستخرج الكلمات اللغوية التي تحتاج الى تفسير وتوضيح ، واثبتها في حروفها وذكر معانيها ، فاذا اراد الانسان كلمة وجدها في حرفها من غير تعب . فجمع كتابه هذا بين دقة التحقيق وجودة الترتيب والتبويب ولذلك اعتمد عليه الناس من بعده واكثروا عليه من الاستدراكات والتعليقات والاضافات الى ان جاء الحافظ ابو موسى محمد بن ابي بكر المدني الاصفهاني فصنف كتاباً جمع

فيه ما فات الهروى من الغريب ، وسلك في وضعه مسالك الهروى فجاء مماثلا له حجما وفائدة . وغبر الناس يعتمدون على هذين الكتابين الجليلين وما سبقهما من الكتب المهمة الى ان جاء ابو القاسم الحسين بن محمد بن الفضل المعروف بالراغب الاصفهاني المتوفي سنة ٥٠٢ هـ فألف كتابه « مفردات الفاظ القرآن » مرتبا على حروف الهجاء ، مقدما ما اول اصوله الهمزة ثم الباء الى آخر حروف المعجم،مشيراً الى المناسبات التي بين الالفاظ المستعارة والمشتقة ، فجاء كتابه هذا من احسن ما الف فى بابه من حيث غزارة المادة و كثرة التحقيق ، وحسن الاختيار ، وبعد النظر . فهو في نظرنا – افيد معجم يرجع اليه الطالب فى تحقيق معاني الالفاظ القرآنية ، وعليه أعتمد البيضاوي فى تحرير تفسيره من ناحية معانى الالفاظ ، واصول اشتقاقها ، ولم نعرف من بعده كتابا يفضله فى موضوعه هذا ومن الواضح ان المؤلفين في هذا الفرع يستقون حاجتهم من المعين الذى تستقى منه اللغة العربية على العموم ، زيادة على استعانتهم بالاحاديث النبوية وآثار الصحابة ، كالمنقول عن ابن عباس واصحابه والآخذين عنه ، فانه ورد عنهم فى هذا الباب الشيء الكثير الجدير بالاعتماد، تجد ذلك منثوراً في كتب التفسير ودواوين اللغة ،وقد احصى منها جلال الدين السيوطي في كتاب « الاتقان » ما يقرب من ثمانمائة كلمة مع تفسيرها على طريق الايجاز .

غريب الحديث

لا تعرف العربية بعد القرآن الكريم كلاما يسامي الكلام النبوي او يدانيه فصاحة ومبنى وبلاغة، وجمال اسلوب وجلال قدر، وبراعة تركيب، وروعة تأثير، وانه لكما يقول شيخ الكتاب ابو عثمان الجاحظ «لم يسمع الناس بكلام قط اعم نفعا ولا اصدق لفظا ولا اعدل وزنا، ولا اجمل مذهبا ولا اكرم مطلبا ولا احسن موقعا، ولا اسهل مخرجا ولا افصح عن معناه ولا ابين عن فحواه من كلامه صلى الله عليه وسلم» ورب قائل يقول: اذا كان الامر على ما وصفت فمن أين تسللت الغرابة الى بعض الفاظه، وتطرق التعقيد الى بعض معانيه، والغرابة لا تساكن الفصاحة والتعقيد لا يجاور البلاغة ؟! فنحن نقول: ان الكلام النبوي منزه عن التعقيد والغرابة بالمعنى الذي يريده المتأخرون من علماء البيان، لانهم لا يريدون بذلك الا الخروج عن جادة المألوف من الالفاظ بالنسبة الى المتكلم والمخاطب، فاذا كان اللفظ من مألوف المخاطبين فليس لاحد ان يسمه بسمة الاغراب، او يصمه بوصمة الابهام، وان كان غير مألوف عند غير المخاطبين به من الناس اذ الاعتبار - في هذا الباب - مقصور على من يتوجه اليه الخطاب دون غيره، ولو ذهبنا في تفسير الاغراب والتعقيد عند البيانيين غير هذا المذهب وقلنا من شرط الفصاحة في الكلام ان يكون عاريا من كل لفظ غير مألوف

للناس اجمعين فى كل زمان ومكان لما وجدنا كلاما للمتكلم من عرب الجاهلية وصدر الاسلام يستحق ان نخلع عليه حلة الفصاحة ضافية او غير ضافية، لانا لا نعرف لهم كلاما منثوراً او منظوما يخلو من الفاظ غير مألوفة بالنسبة للاجيال المتأخرة تدفع السامع او القارىء منهم الى استنطاق دواوين الادب ومعاجم اللغة ، والاستنجاد بالشروح والتعاليق .

والحقيقة ان الغرابة نسبية تختلف باختلاف الناس والزمان والمكان، فرب لفظ يكون شائعا دائما عند قوم ، وعديم الاستعمال قليله عند آخرين . ورب لفظ يكون معروفا مألوفا فى زمان او بلد ، ومنكوراً مجهولا في في زمان او بلد آخر ..

هذا واعلم ان النبي (ص) كان يشافه العرب ويكاتبهم افراداً وجماعات ، وكانوا على ما تعلم من اختلاف اللون واللغات ، وتباعد المواطن واللهجات ، وكان يخاطب كل قوم بلغتهم وعلى اسلوب تفاهمهم، وان كان ما يكلمهم به غير معروف تمام المعرفة عند قومه واهله بل قد تجهله قبائل معد كلها . فقد روى ان علياً كرم الله وجهه قال للنبي (ص) وقد سمعه يكلم وفد بني نهد بلحنهم : « يا رسول الله نحن بنو اب واحد ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم اكثره » فقال له : « ادبني ربي فاحسن تأديبي » ومن يرجع الى اسفار قبائل العرب غير العدنانية يأخذه العجب مما اوتيه الرسول الكريم من البسطة فى البلاغة وسعة الاطلاع على مختلف لغات الجمهرة من قبائل مضر فلا نحكم على هذه

الالفاظ بالغرابة المطلقة بل علينا ان نبحث عن مواردها . ونقف على ما تكتنفها في زمان ومكان ، وبذلك نصل الى انها قيلت في موضعها ، ووقعت في موقعها بحيث لو حلّ محلها غيرها مما نسميه مألوفا الآن لو سم بسمة الاغراب والاندار .

ثم ان كثيراً من الكلام النبوي نقل الينا بالمعنى دون الالفاظ ، والنقلة اكثر من ان يحصوا عداً وهم مختلفوا الانساب قبيلة وبلداً ، منهم القرشي والكناني والبكري والتغلبي ، ومنهم الهمداني والكندي والقضاعي والزبيدي ومنهم المكي والمدني والحضرمي ... الخ .

فاذا نقل احدهم الحديث بالمعنى كان اللفظ له . وعلى اسلوب كلام قومه واهل بلده . ومن هنا ينكشف لنا السر في ورود بعض الاحاديث على نمط لم يكن مألوفا في لغة اهل الحجاز وان كان الخطاب معهم ، وما ذلك الا لان اللفظ لبعض الرواة وهم غير حجازيّي القبيلة او البلد . وهذا هو السر ايضا في ان المتقدمين من النحاة لم يجعلوا الحديث اساسا في الاستشهاد لتقرير قواعد النحو واستخراج مسائله . واول من وسع دائرة الاستشهاد به وعول عليه في اثبات القواعد وتقرير المسائل إمام المتأخرين من النحويين محمد بن عبدالله بن مالك الاندلسي المتوفى سنة ٦٢٢ ﻫ والحق معه لان المتقدمين الاولين من نقلة الحديث معظمهم ممن كلامه حجة في العربية ، فاذا ابدلوا بعض الفاظ الحديث بالفاظ من عندهم فليس معنى ذلك انهم خرجوا به عن العربية المعربة الى غيرها .

ولنرجع الى ما نحن بصدده من الكلام فى تاريخ علم غريب الحديث فنقول :

اول من جمع في هذا العلم شيئاً ابو عبيدة معمر بن المثنى جمع فيه كتاباً صغيراً ذا اوراق معدودات لانه مبتدئ ، ولان في الناس اذ ذاك بقية ، وغصن اللغة لم يزل وريقاً ، فلم تكن الحاجة ماسة الى الكثير مما يعده المتأخرون غريباً لانه لم يكن اذ ذاك بالغريب .

ثم جاء النضر بن شميل المازني فجمع فى ذلك كتاباً اكبر حجماً من كتاب ابى عبيدة واوسع فيه الشرح والايضاح ، ولكنه لم يخرج عن ان يعد من المختصرات .

والف الاصمعي كتابا اربى فيه على كتاب ابى عبيدة من حيث المادة والتبسط فى البيان والتوضيح . ثم ان كثيراً من أئمة اللغة جمعوا طوائف من الاحاديث وتكلموا على لغتها ومعناها ، وهم في الغالب يتواردون على الحديث الواحد فيشرحه كل على مبلغه من العلم ولم يكد احدهم ينفرد عن غيره بالشيء المهم .

وغبر الناس على هذا الى ان جاء ابو عبيد القاسم بن سلام فالف كتابه المشهور في هذا الموضوع ، وجمع فيه من الاحاديث والآثار مالم يجتمع فى كتاب من قبله . وقد روى عنه انه كان يقول : جمعت كتابي هذا فى اربعين سنة فهو خلاصة عمري . وقد انتشر هذا الكتاب وذاع صيته لذلك العهد واعتمد الناس عليه في موضوعه .

فلما كان عصر عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ورأى ما عليه الناس من الاعتماد على كتاب ابي عبيدة، ووجد ان هذا الكتاب لم يأت على معظم الاحاديث واكثر الآثار تحتاج الى الايضاح والتبيين - عمد الى تأليف كتاب جمع فيه ما اغفله ابو عبيدة في كتابه ونحا فيه ما نحاه من طريقة التفسير والشرح . وكان ابراهيم بن اسحاق الحربي معاصراً لابن قتيبة فالف كتابا واسعا جمع فيه الشيء الكثير من الاحاديث والآثار، وبسط القول واطال الشرح، ولكن الناس زهدوا فى هذا الكتاب لان المؤلف اطاله بذكر الاحاديث بطرق اسانيدها وذكر متونها من اولها الى آخرها . ولم يكن فى بعضها الا الكلمة والكلمتان مما يحتاج الى الشرح والتفسير .

ثم تتابع الأئمة على التأليف في هذا العلم واقبلوا عليه ايما اقبال فقلما نجد كبيراً من كبراء اهل هذا العلم الا وله شيء فى هذا الباب مثل شمر بن حمدويه، وابى العباس ثعلب، وابى العباس المبرد، وابى بكر بن الانباري وابى عمر الزاهد المعروف بغلام ثعلب وغيرهم .

ثم جاء الامام ابو سليمان احمد او «حمد» بن محمد الخطابى البستي المتوفي سنة ٣٨٦ ﻫ فالف كتابا سلك فيه مسلك ابي عبيد وابن قتيبة، ولكنه قصره على ذكر ما لم يورداه فى كتابهما فجاء كنحوٍ من احدهما حجما .

وغبر الناس زمنا يتداولون هذه الامهات الثلاثة ويعولون عليها في بابها ، ولكن هذه الكتب وما قبلها - ما عدا كتاب الحربي - لم تكن مبوبة تبويبا يسهل على الناس المراجعة ، وفي هذا ما فيه من العناء على المراجعين فاذا اراد المرء معرفة كلمة غريبة وردت في احد الاحاديث لا يهتدى اليها الا بعد جهود كثيرة ، زيادة على انه لا يدري الحديث المطلوب في اي الكتب الثلاثة هو ، فيحتاج الى استقرائها واحداً واحداً . فلما كان عصر ابي عبيد احمد بن محمد الهروي - وكان معاصراً للخطابي - الف كتابه المشهور في غريب القرآن والحديث ورتبه مقفى على حروف المعجم على ما قلناه في مفردات القرآن . وقد جمع في كتابه هذا ما في كتاب ابي عبيد وابن قتيبة وغيرهما ، واضاف الى ذلك ما تنبه بنفسه مما لم يرد في كتب من تقدمه .

ثم جاء الامام محمود بن عمر الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨ ﻫ فالف كتابه «الفائق» ورتبه على حروف المعجم . ولكنه عندما يريد شرح كلمة غريبة من حديث يشتمل على اكثر من كلمة غريبة يورد الحديث كله او بعضه ويشرح كل ما فيه من الغريب ، وبذلك يشرح كثيراً من الكلمات في غير حروفها فيعسر على المتتبع العثور على مطلوبه بالسرعة ولذلك لم يشتهر كتابه اشتهار كتاب الهروي مع ما اودعه من الحقائق اللغوية والتدقيقات العلمية .

وجاء ابو موسى محمد ابن ابي بكر المديني الاصفهاني فالف كتابه في الغريبين جمع فيه ما فات الهروي من غريبي القرآن والحديث على ما علمت في الكلام على غريب القرآن .

والف ابو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي كتابه فى الغريب ، نهج فيه نهج الهروي بل هو كالمختصر منه .

وكان من معاصريه العلامة ابو السعادات المبارك بن محمد المعروف بابن الاثير الشيباني الجزري المتوفى سنة ٦٠٦ ﻫ فرأى ان احسن ما يرجع اليه في هذا الشأن كتاب الهروي وابى موسى المذكورين وقد رأى ان الانسان اذا اراد كلمة غريبة يحتاج الى ان يتطلبها فى احد الكتابين فان وجدها فيه والا طلبها من الكتاب الآخر ، وهما كتابان كبيران فى مجلدات ، فعمد الى جمع ما فيهما من غريب الحديث مجرداً من غريب القرآن ، واضاف كل كلمة الى اختها تسهيلا لكافة الطلاب ، وقد ضم اليهما الشيء الكثير مما لم يوفقا اليه من غرائب الكتب الصحاح كالبخاري ومسلم وغيرهما من الكتب المدونة في اول الزمان واوسطه وآخره ، ومن كتب اللغة على اختلافها ، وقد سلك طريقة الكتابين المذكورين فى الترتيب والتبويب على حروف المعجم ملتزما الحرف الاول والثانى من كل كلمة واتباعهما بالحرف الثالث منها ناظراً الى الحروف الاصلية من الكلمة دون الزوائد ، وانه كثيراً ما يعتبر

الحروف الزائدة في اوائل بعض الكلمات بمثابة الحروف الاصلية تسهيلا على الطلاب ولا سيما الذين لا يكادون يفرقون بين الاصلي والزائد، على انه عندما يذكر ذلك ينبه على اصل الكلمة لئلا يظن ظان ان الزائد اصلي فيختلط عليه الامر. واسمى كتابه هذا «النهاية في غريب الحديث والأثر» وهو اجل كتاب الف فى هذا العلم واجمه، وعليه الاعتماد في فنه، وقد صار مستمداً لمؤلفي المعاجم اللغوية من بعده. ولا نعرف ان احداً الف بعده كتابا يساويه او يقاربه غير ان جلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ كان قد لخص هذه النهاية فى كتاب اسماه «الدر النثير في تلخيص نهاية ابن الاثير» وقال انه ضم الى كتابه هذا كثيراً مما فات صاحب النهاية، ومن وقف على النهاية ثم وقف على هذا الكتاب لم يرق لنظره الرجوع اليه مرة اخرى لان جلال الدين السيوطي بتلخيصه هذا ذهب برونق الاصل وجماله، وضيق منه واسعا فسيحا، هذا وانما تزاحمت اقلام اهل العلم فى باب غريب الحديث اكثر من ازدحامها في باب مفردات القرآن لان الاحاديث الآثار فسيحة الرقعة منتشرة الاطراف واسعة الارجاء، وقلما توفق العالم المبرز الى استقصاء اكثرها فيأتي عالم آخر من بعده فيستدرك عليه كثيراً مما فاته، ثم يأتي ثالث فيستدرك على الثاني وهكذا على ما علمت فيما مر، بخلاف القرآن الكريم فانه مجموع بين دفتيه متواتر بكل ما في معنى

التواتر من قوة ، وبهذا يسهل على اهل العلم استقصاء كل ما فيه من المفردات فلم يبق الا اختلاف انظارهم في تفسير بعض الكلمات واختلافهم في ايجاز الشروح او الاطناب فيها ، واختلاف اذواقهم في الترتيب والتبويب ، والتنقيح والتهذيب ، وهذه امور ليست من الصعوبة بمكان ، بخلاف ما يعانيه المؤلفون فى غريب الحديث من التتبع الكثير والاستقراء الواسع ، هذا ابن الاثير بعد ان وقف على ما وقف عليه من جهود العلماء فى هذا الباب واستقرى ما وصل اليه جهده من المصنفات الكثيرة في الحديث والآثار ، نجده مع ذلك كله يقول في خطبة نهايته « كم يكون قد فاتني من الكلمات الغريبة التي تشتمل عليها احاديث رسول الله ﷺ واصحابه وتابعيهم جعلها الله ذخيرة لغيري يظهرها على يده ليذكر بها ، ولقد صدق القائل : كم ترك الاول للآخر » يقول هذا وهو من هو في غزارة العلم وسعة الاطلاع ، وطول الباع ، فى علوم الشريعة وفنون الآداب .

النحو

قلنا فى تاريخ علم اللغة ان انبساط العرب فى الارض على عدان نهضتهم المعروفة دفع بلغتهم الى الاحتكاك بلغات الامم المختلفة فاخذ اللحن يدب في عروقهم والعجمة تسري فى اطرافها . وان اول ما منيت به الاضطراب في اعرابها ، والاختلاف في نظام تركيبها . والاعراب

اجمل حلية تتحلى به لغة مضر وانفس اعلاقها، واجلى مميزاتها ، واجل مفاخرها . فعز على ابنائها وذويها ان تصاب على مرأى منهم ومسمع وهم عنها لاهون ، فهب فريق من عقلائهم ، واهل المواهب فيهم ، حفزتهم الحمية القومية ، والغيرة الدينية ، والحنكة السياسية الى بذل الجهد في نصرتها وتعزيز جانبها ، وكان مجلى الحلبة في هذا المضمار ابو الاسود الدؤلي الكناني احد اعلام التابعين ، فعل ذلك باشارة امير المؤمنين علي بن ابي طالب (رض) وكان ابو الاسود من اعلام شيعته وانصاره . فعمد ابو الاسود الى ضبط بعض القوانين ، واستقراء بعض الابواب وكتب فى ذلك صحيفته المعروفة عند النحاة بالتعليقة وهي اول صحيفة دونت فى علوم اللسان العربى .

واختلف الناس الى ابي الاسود يتعلمون منه القواعد التي وضعها واطلق عليها اسم « النحو » . وتخرج به فى هذا العلم جماعة كان من انبههم ابنه عطاء ويحيي بن يعمر العدوانى ، ونصر بن عاصم الليثى وميمون الاقرن ، وعنبسة بن معدان الفيل . ثم تخرج بهذه الطبقة جماعة وبهؤلاء آخرون على ما عرفناه فى تاريخ علم الامة . ولم يزل امر هذا العلم في توسع الى أن كان عصر الخليل بن احمد الفراهيدي فجمع متفرقه، وفصل قواعده ، واكمل ابوابه ، وهذب مسائله . وبالجملة فان الخليل يعد امة في علوم اللسان العربى .

واخذ النحو عن الخليل جماعة من انبههم سيبويه . وقد ألّف كتابه الذي اسماه « قرآن النحو » ؛ وعقد ابوابه بالفظه ولفظ الخليل . فاذا جاء في كتاب سيبويه لفظ « حدثني » او « قال لي » او «اخبرني» او نحو ذلك من غير ذكر احد فانه يريد الخليل .

البصريون والكوفيون

ان ابا الاسود وان كان كوفي المولد الا انه بصري النشأة . وفي البصرة وضع حجر الزاوية في اساس علم النحو . وكان تلامذته من اهلها ، وكذلك تلامذتهم . ولم يزل النحو ربيبا للبصريين ينتقل في حجور أئمتهم زمنا قبل ان عرفه الكوفيون .. واول من عرف النحو من الكوفيين شيبان بن عبد الرحمن التميمي المتوفي سنة ١٦٤ ﻫ وكان في الاصل من ثقاة البصريين ولكنه هاجر الى الكوفة واتخذها دار إقامة له . وهو من تلاميذ ابى عمرو بن العلاء . ومن اخذ عن ابى عمرو من الكوفيين ابو جعفر الرؤاسي . وكان معظما عندهم وحجة لديهم . ويقولون ان كثيراً من علومهم وقراءآتهم مأخوذة عنه . وهو اول من وضع كتابا في النحو من الكوفيين . وقد اسماه « الفيصل » قيل : « ان كل ما في كتاب سيبويه من قوله « وقال الكوفي كذا » انما عنى به الرؤاسي هذا » .

وكان عمه معاذ بن مسلم الهراء معاصراً له . وهو نحوى مشهور

وهو الذي ابدع التصريف على ما سوف تعلمه . ونخرج بهذين الامامين جماعة اشهرهم وانبههم علي بن حمزة الكسائي . وكان حضر في حلقة الخليل بن احمد . وضرب في البوادي سنين كثيرة يأخذ عن اقحاح الاعاريب وفصحائهم الى ان استوى اماما غير مدافع . واليه انتهى علم العربية والقراءآت بالكوفة وهو الذي رسم للكوفيين الحدود التي احتذوا امثلتها . وخالفوا فيها البصريين وكان عندهم كالخليل عند البصريين ومن هنا امتاز نحو الكوفة عن نحو البصرة . وبدأ التدافع والتنازع بين الفريقين . ومن اشهر امثلة ذلك المناظرة التي دارت بين امامي المصرين : الكسائي وسيبويه في مجلس يحيى بن خالد البرمكي ، وتحرير الخبر : ان سيبويه قدم على البرامكة وافداً . فعزم يحيى على الجمع بينه وبين الكسائي فجعل لذلك يوماً . فلما حضر سيبويه تقدم اليه تلميذا الكسائي خلف والفراء . فسألاه مسائل عن قول العرب : « وقد كنت اظن ان العقرب اشد لسعة من الزنبور فاذا هو هي . او فاذا هو اياها . » فقال سيبويه : « فاذا هو هي ، ولا يجوز النصب .. » وسأله عن امثال ذلك نحو : « خرجت فاذا محمد القائم او القائمَ » فقال سيبويه : « كل ذلك بالرفع » . وقال الكسائي « العرب ترفع كل ذلك وتنصبه » فقال يحيى البرمكي : « قد اختلفتما وانتما رئيسا بلديكما ، فمن يحكم بينكما ؟ » قال له الكسائي : « هذه العرب ببابك قد سمع منهم اهل

البلدين فيحضرون ويسألون » فاحضروا فوافقوا الكسائي .

وايضاح هذا ان العرب تقول : خرجت فاذا هاشم واقف او واقفاً ، فالرفع على الخبرية وهو الاكثر ، وعليه قوله تعالى : « هي حية تسعى » « فاذا هي شاخصة ابصارهم » « فاذا هي بيضاء للناظرين » « فاذا هم خامدون » ... والنصب على الحالية ، وهو قليل . واذا قيل : خرجت فاذا هاشم الواقف وجب الرفع وامتنع النصب عند البصريين لان من شروط الحال عندهم ان تكون نكرة « والواقف » هنا معرفة . ومثل ذلك قولهم : « فاذا هو هي » فلا يجوز عندهم الاتيان بضمير النصب وهو « اياها » بدل ضمير الرفع وهو « هي » لان « اياها » لا يصلح ان يكون حالا لانه معرفة بل هو من اعرف المعارف . ولانه غير مشتق . وشرط الحال عندهم ان تكون مشتقة ...

اما الكوفيون فيستندون في قولهم هذا على السماع وان كان قليلا . والبصريون يرجعون ما سمع من ذلك الى ما اشترطوه بضروب التأويل معروفة عندهم ومبثوثة في كتبهم ..

ومن هذا تعلم ان سيبويه اعتمد في جوابه على قاعدة اهل بلده والكسائي انتصر عليه بسماعه عن اعرابه . وهذه المسألة هي المشهورة عند النحاة بـ « الزنبورية » . واليها اشار الاديب ابو الحسن حازم بن محمد الانصاري الاندلسي المتوفي سنة ٦٨٤ هـ في منظومته المشهورة :

والعرب قد تحذف الاخبار بعد اذا
اذا عنت فجأة الامر الذي دهما
وربما نصبوا للحال بعد اذا
وربما رفعوا من بعدها ربما
فان توالى ضميران اكتسى بهما
وجه الحقيقة من اشكاله غمما (١)
لذاك اعيت على الافهام مسألة
اهدت الى سيبويه الحتف والغمما (٢)
قد كانت العقرب العوجاء احسبها
قدماً اشد من الزنبور وقع حما (٣)
وفى الجواب عليها هل اذا هو هي
او هل هواياها قد اختصما
وخطأ ابن زياد وابن حمزة فى
ما قال فيها ابا بشر وقد ظلما (٤)
وغاظ عمرا علي فى حكومته

(١) الغممّ هنا : كناية عن الخفاء والغموض . (٢) والغمم : جمع الغمة ، وهي السكرية .

(٣) الحمة : سم العقرب وضرها . والجمع حما وحمات

(٤) ابن زياد : هو يحيى بن زياد (الفراء) وابن حمزة : علي بن حمزة —

يا ليته لم يكن فى امره حكما(١)

كغيظ عمرو عليها في حكومته

يا ليته لم يكن في امره حكما(٢)

والغبن في العلم اشجى محنة عرفت

وابرح الناس شجوا عالماً هضما

وهذه الحادثة اوضح مثال يماز به احد المذهبين عن الآخر . فان البصري يبنى قاعدته على الاغلب الشائع ، ويرمي ما وراءهما من الشاذ والنادر ناحية ، او يجتهد في ارجاعها الى قاعدته بضرب من التأويل والتوجيه ، اما الكوفي فيسمع الشاذ او النادر ويجعلها اصلا يقيس عليه غيره فكثير مما يعتبره البصريون شاذاً او نادراً يعتبره الكوفيون قاعدة واصلا . وبذلك تنتشر المسائل وتتسع دائرة الجواز اضف الى ذلك ان البصريين لا يعتمدون على التأصيل والتفريع الا على العرب الموثوق بعربيتهم من الذين توقحت سلائقهم ، وابتعدت عن الحواضر

— (الكسائي). وابو بشر (سيبويه).والمعنى ان الفراء وشيخه الكسائي خطآ سيبويه فى هذه المسألة ظلماً منهما .

(١) عمرو : اسم سيبويه . وعلى اسم الكسائي . والالف في قوله حكما للاطلاق والحكومة : الحكم .

(٢) المراد بعمرو فى هذا البيت (عمرو بن العاص) وبعليّ : علي بن ابي طالب ، وبالحكومة التحكيم . والحكم من يرتضيه الخصمان للحكم بينهما .

مضاربهم ، بخلاف الكوفيين فانهم قد يعتمدون على من كان يجاور مصرهم من الاعاريب الذين خارت سلائقهم، واختبلت السنتهم لكثرة ترددهم الى الحواضر ، واختلاطهم بالاكرة من الانباط ، فالبصريون لا يرون الاعراب الذين يحكي عنهم الكوفيون حجة ، وكانوا يعيرونهم بهذا ، ويقولون لهم : « اخذتم عربيتكم عن باعة اللبن واكلة الكوامخ ، ونحن اخذنا عربيتنا عن حرشة الضباب واكلة اليرابيع » زد على هذا وذلك ان جماعة من رواة الشعر الكوفيين كانوا يصنعون الشعر وينسبونه الى غير اهله ، وعلى رأس هذه الجماعة المفتعلة حماد ابن هرمز الديلمي اللحانة المصحف الكذوب ، وكان النحاة من اهل الكوفة يعتمدون على هذا النوع من الشعر المختلط ويستشهدون به على تقرير قواعدهم وتأييدها . وهذا ما حمل البصريين على طرح نحو الكوفيين والاستخفاف به ، زيادة على اضطرام اوار المنافسة بين علماء المصرين من اول يوم . ولا يعلم ان احداً من البصريين اخذ شيئاً من النحو عن الكوفيين ، ولا روى عنهم شيئاً من الشعر يعتمد عليه فى الشاهد الا ما كان من ابى زيد الانصاري البصري فانه روى عن المفضل الضبي الكوفي لثقته في الشعر وامانته ..

على ان البصريين في تحرجهم وكثرة تشددهم ضيقوا على العربية صدرها الواسع فى كثير من المواطن التي تتطلب سعة وانبساطاً ، ولا

يتسع هذا الباب للافاضة في هذا ، وسنفرد له فصلا برأسه في غير هذا المكان ان شاء الله تعالى …

وانتهت رئاسة الكوفية من بعد الكسائي الى يحيى بن زياد الفراء . وكان اخذ علمه عن الكسائي وهو عمدته ، واخذ عن اعراب وثق بهم ، وعن يونس من البصرية ، وكان المأمون قد رسم ان تفرد له حجرة من حجر دار الحكومة ، ووكل به من يكفيه كل حاجته ، وعين له الوراقين ، والزمه الامناء والمنفقين . وامره ان يؤلف ما يجمع به اصول النحو وما سمع من العرب فكان يملي والوراقون يكتبون ، حتى اتم تصنيف كتابه المعروف بكتاب الحدود . وجمع فيه ستة واربعين حداً في النحو ، والف كتبا اخرى وكان يتفلسف في تصانيفه . وكان الكوفية يلقبونه : امير المؤمنين في النحو .

ولما انشئت بغداد ، وصارت حاضرة الخلافة ، وعاصمة آل عباس ، وراجت فيها سوق الآداب كان الكوفيون اسبق الناس اليها لمكانة الكوفة من بغداد من الوجهتين : السياسية والجغرافية . ولهذا وجدنا ان علماء الكوفه اتصلوا بقصور الخلفاء والامراء ، واحتلوا الصدور من حلق تدريسها ومحافل ادابها . فكان الكسائي عند الرشيد والفراء عند المأمون بالمكانة السامقة . وكان مذهب الكوفية ما علمت من التساهل في التأصيل والتفريع ومن ثم وجدنا تلاميذهم من البغداديين مولعين بالروايات الشاذة . يتفاخرون في النوادر ، ويتباهون

بالترخيصات . واعتمدوا على الفروع ، ولم يأبهوا للاصول ، ومن هنا تولد مذهب مضطرب النواحي كثير التعاريج ، عرف بمذهب البغداديين ، ولما كان هذا المذهب احط من ابيه الكوفي طرحه الجمهور وما اقاموا له وزنا .

ثم تكاثر الناس حول موارد هذ العلم ، وازدحمت اقدامهم في جنباته ، وتكاثرت فيه التصانيف ما بين مطولة ومختصرة ، وبين عامة مشتملة على جميع ابوابه ، وخاصة مقتصرة على باب او بضعة ابواب ، وكثر الأخذ والرد بين ارباب المذاهب من البصرية والكوفية والبغدادية ، وطال اللجاج ، وكثر الحجاج ، ونمطت الابواب والفصول ، وانتشرت المسائل واشتبكت الفروع . وبينما الناس في هذه الضجة في المشرق ، كان النشاط آخذاً مأخذه في تكوين الدولة الأندلسية في المغرب . وقد اولع ملوك هذه الدولة واشتدت رغبتهم في تنشيط الحركة الأدبية ، وتعزيز جانبها ، اقتفاء لآثار اوليهم في شاماتهم ، وإحياء لمآثرهم في ايام زهوهم ، ومباراة لابناء عمهم في بغدادهم . فكان همهم تقريب اهل الادب والحدب عليهم والحرص على تكريمهم وتبجيلهم ، وقد ادروا لهم اخلاف النعم حافلة ، وخلعوا عليهم حلل الفواضل ضافية ، مما زاد في اقبال الناس على المعارف يردون حياضها ، ويرتشفون زلالها ، ويرتادون رياضها ، ويتفيئون ظلالها .. فانجبت تلك المملكة جماعات من فطاحل علماء العربية رجعوا

الى ما اصله المراقيون من الاصول ، وما فرعوه من الفروع ، فاطالوا النظر فيه ، ووقفوا على ما بين البصرية والكوفية من خلاف ووفاق ، وما يستند اليه كل فريق من رواية ودراية ، وتهيأ لهم ما لم يتهيأ لغيرهم من الاطلاع على مرويات المشارقة كلها من منظوم القول ومنثوره .

وكان جل اعتمادهم على مذهب البصرية ، ومع ذلك فانهم شقوا لهم طريقاً واضحة تنسب اليهم ، وهي من اقوم الطرق واتقنها لانها لم تنحرف عن البصرية الا عندما تنحرف البصرية انحرافاً لا تستسيغه الدراية ، ولا تدعوا اليه الرواية ..

ولم يزل هذا المذهب آخذاً فى التوسع مع تعهده بالصقل والتهذيب ، وحسن التفصيل والتبويب ، الى ان طغى سيل الافرنجة على تلك الربوع ، ونجمت سموءها بشموسها واقمارها ، فولى علماؤها وجوههم شطر المشرق ، وفضلوا الجلاء عن الاوطان على الوقوع فى شباك الهوان ، فتكاثر في المشرق عديدهم ، وازدانت مدارسه بمعارفهم ، واخذ مذهبهم يزاحم مذاهب المشارقة ولا سيما فى دمشق والقاهرة ، حتى احتل الصدور ، ولا سيما فى العصور المتأخرة ..

هذه المذاهب الاربعة هي المذاهب الكبرى في هذا العلم واليها المرجع في حل المشكلات ، وايضاح المعضلات ، والا فهناك مذاهب كثيرة يكاد عددها يتعسر على العادين اذ لكل امام في الحقيقة مذهب

خاص به يخالف فيه غيره ولو من بعض الوجوه ، فلسيبويه اراء يخالف فيها شيخه الخليل . وللأخفش الاوسط اراء يخالف فيها شيخه سيبويه وللفراء مذهب ينحرف عن مذهب الكسائي في غير ما موطن .

وهكذا نجد لكل عالم من علماء العربية اراء تخصه ، تكثر او تقل حسبما اوتيه من بسطة في العلم ، وقدرة على الابداع ، ولكن مرجع هذه المذاهب المختلفة الى تلك الأمات الاربع ، واصول هذه الاربعة اثنان : البصرية والكوفية ، اما مذهب البغدادية فمرجعه الكوفية ، واما مذهب الاندلسية فمرجعه البصرية ..

وقد افرد بعض العلماء مسائل الخلاف بين هذين الفريقين بالتأليف واحصى في ذلك مائة مسألة ونيف اوردها جلال الدين السيوطي في كتاب : « الاشباه والنظائر النحويه » .

ولما كان النحو ملازماً لمتن اللغة ، لان اللغة هي المحور الذي تدور عليه سائر العلوم اللسانية التي يمد النحو في مقدمتها راينا انه قلما يتبحر عالم في النحو الا وهو امام في اللغة وبالعكس .. فاذا استعرضنا أولئك اللغويين الذين اومأنا اليهم في تاريخ علم اللغة ، فكأنما استعرضنا جماعة النحويين ، ولهذا لا نرى حاجة الى تكرار تلك الاسماء في هذا المقام الا اذا دعت الضرورة كما سترى ..

وما كاد ينطوي بساط القرن الرابع الهجري حتى اصبح النحو

يعد في زمرة العلوم الناضجة ، وقد تطورت حالته بتطور الحالة العلمية على وجه العموم .

وكان في مقدمة نحاة المائه الرابعة : ابو بكر بن محمد بن السراج البغدادي صاحب الاصول الكبير وجمل الاصول والموجز وشرح كتاب سيبويه . وكان قد عوّل على الاخفش والكوفيين فى كثير من المسائل وكانوا يقولون : « كان النحو مجنونا حتى عقله ابن السراج باصوله . » ومن أئمة هذه المائة أبو اسحق ابراهيم بن محمد الزجاج وتلميذه ابو القاسم عبد الرحمن الزجاجي صاحب كتاب « الجمل » . وابو بكر محمد بن القاسم الانباري احد علماء الحفاظ . قيل انه كان يحفظ ٣٠٠ الف بيت من شواهد العربية ، وهذا من المبالغة بمكان ولكنه على كل حال يدل على سعة حفظ الرجل . ومنهم ابو سعيد بن عبدالله السيرافى المتوفى سنة ٣٦٨ ﻫ صاحب كتاب الاقناع ، وله شرح لكتاب سيبويه من اجل الشروح قدراً واعظمها فائدة ..

ومنهم علي بن عيسى الرماني المتوفي سنة ٣٨٤ ﻫ ؛ اول من مزج النحو بالمنطق،وألف كتاب الحدود،وشرح اصول ابن السراج وكتاب سيبويه . وله كتاب معاني الحروف وغير ذلك ،ومنهم ابو علي الحسن بن احمد الفارسي صاحب التصانيف الكثيرة منها الايضاح ، التكملة ، الحجة ، التذكرة ، المسائل الحلبية والبغدادية ، والقصرية ، والنصرية ،

والشيرازية ، والعسكرية ، والكرمانية ، والهيتية وغيرها .. ومن حسنات الفارسي بل من حسنات هذه المائة ابو الفتح عثمان بن جنيّ الموصلي المتوفى سنة ٣٩٢ ه تلميذ الفارسي ، واحد اعلام العربية الذين خدموها خدمة تذكر فتشكر . ومن تصانيفه : الخصائص في عدة مجلدات ،وسر الصناعة واللمع ، وكان نسيج وحده في صناعة التصريف على ما ستقف عليه ان شاء الله تعالى .

واتسعت دائرة النحو في المائة الخامسة ، وكثر النحاة واشتهر منهم جماعة كبيرة من اشهرهم : عبدالقاهر الجرجاني الامام المشهور المبدع ، له في النحو : المغني ، والمقتصد في شرح الايضاح . وله العوامل المائة . وهو اول من ابدع هذه الطريقة في النحو ، وله كتاب الجمل وله العمدة في التصريف ..

ومن مشهوري هذا العصر : علي بن عيسى الربعي المتوفي سنة ٤٢٠ ه احد تلاميذ الفارسي الافذاذ ، وهو الذي قال له بعد ان لازمه عشر سنين : « ما بقي شيء تحتاج اليه ، ولو سرت من المشرق الى المغرب لم تجد أعرف منك بالنحو . » ومن هنا اتجهت الالفاظ الى تخليص المسائل الكثيرة وتحريرها ، ولمّ القواعد المنتشرة وتلخيصها وجمع ذلك في كتب مختصرة اسموها « بالمتون » ويستظهرونها بكل عناية ، ولهذا اشتدت رغبتهم في الاختصار وادخال المعاني الكثيرة تحت الالفاظ

القليلة. وانجرت بهم الحال الى المبالغة في الايجاز، بل كان كثيراً ما ينجر الامر ببعضهم فى هذا الباب الى الابهام والتعمية، وقد بلغ هذا الاسلوب من التأليف ابعد شأوه في المائة السادسة والتي بعدها فقد نشأ في هاتين المائتين جماعة من فحول علماء العربية حبب اليهم التحرير والتهذيب، وحسن الترتيب والتبويب، ثم منهم من كان يعني بالاستقصاء والاستيعاب، ومنهم من كان يقتصر على المبادئ والابواب التي لا بدّ منها تسهيلاً للامر على المبتدئين من المتعلمين، ولما كانت العناية متوجهة الى تسهيل الحفظ وكان المنظوم اسهل حفظاً من المنثور انجهت انظار بعضهم الى نظم مسائل هذا العلم باساليب مختلفة.

واول من فتح هذا الباب - فيما نعلم - يحيي بن معطى الزواوي المغربي المتوفي سنة ٦٢٨ هـ. وكان لهذا الرجل عناية فائقة فى نظم العلوم اللسانية. فقد نظم ارجوزة فى النحو اسماها «الالفية» وشرح شواهد الكتاب نظما، ونظم كتاب الجمهرة لابن دريد، ونظم كتابا في العروض، ونظم الصحاح للجوهري ولم يتمه، وله منظومات فى القراءات السبع، وهو الذي اوضح معالم هذه السبيل لمحمد بن عبدالله بن مالك الطائي المتوفى ٦٧٢ هـ، فان له في العربية منظومات قل أن جاراه فيها مجار في الاولين والآخرين منها: ارجوزته الكافية الشافية فى نحو سبع وخمسين وسبعمائة والفي بيت، ومنها استخلاص خلاصته المعروفة

بالالفية وهي اجل منظومة عرفها علم النحو ، ومن منظوماته : لامية الافعال ، والمقصور والممدود ، وله شروح على اكثر منظوماته . ومن اجل كتبه في العربية كتاب « الفوائد » حشد فيه كل ما حوته مطولات الاقدمين من ابحاث النحو والتصريف ، ثم لخص هذا الكتاب ورتبه احسن ترتيب واسماه « تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد » وهو كتاب جليل القدر الا انه موجز العبارة الى حد الغموض فى بعض المواطن ، وله عليه شرح لكنه لم يتمه . وممن نظم النحو : حازم بن محمد الانصاري القرطبي المتوفي سنة ٦٨٤ ﻫ نظم قصيدة على حرف الميم امتدح بها بعض امراء المغرب قال فى مطلعها :

الحمد لله المعلى قدر من علما

وجاعل العقل فى سبل الهوى علما

وقد مرت بعض ابياتها في المسألة الزنبورية ..

ومن المنظومات الموجزة في النحو : ملحة الاعراب لابي محمد القاسم بن على الحريري المتوفى سنة ٥١٦ ﻫ صاحب المقامات المشهورة .

ومن مشهوري علماء العربية في صدر المائة السادسة محمود بن عمر الزمخشري صاحب المفصل .

واشتهر في هاتين المائتين جماعة لعبت ايدي الفتن في مؤلفاتهم فلم تبق منها الا النزر اليسير .

ومن اشهر النحاة المبالغين في الايجاز : ابو عمرو عثمان بن عمر المعروف بابن الحاجب المتوفي سنة ٦٤٦ هـ له الكافية فى النحو والشافية فى التصريف ، وله الامالى النحوية ، وله شرح الكافية وآخر للشافية. وشرح للمفصل وآخر للايضاح ، وغيرها ..

ومن مشهوري نحاة هذا العصرفى الاندلس : على بن مؤمن المعروف بابن عصفور الحضرمي الاشبلي المتوفي سنة ٦٦٩ هـ حامل لواء العربية في زمانه بالاندلس ، له كتب في النحو والتصريف ممتعة كانت عمدة من جاء بعده من النحويين ، منها : المقرب وشرحه ، ومنها الممتع وشرحه .

اما نحاة المائة الثامنة فاشهرهم :ابو حيان محمد بن يوسف الاندلسي الغرناطي المتوفي سنة ٧٤٥ هـ احد اعلام العربية الذين استنارت بمعارفهم العصور المتأخرة ، وهو اول من جسّر الناس على مصنفات ابن مالك ،ورغبهم في قراءتها ، وشرح لهم غوامضها ، وشرح التسهيل شرحا مطولا اسماه « التذييل والتكميل » واختصره فى كتاب جاء فى سفرين اسماه « الارتشاف » ، ولم يؤلف في العربية احسن من هذين الكتابين من حيث الاستقصاء واحصاء ضروب الخلاف ، وله : التذكرة فى العربية في اربعة مجلدات وله شروح كثيرة ، وموجزات عديدة لكتب مختلفة .

ثم جاء علم الاعلام المدققين ، وعمدة النحاة المتأخرين : عبدالله ابن يوسف بن هشام الانصاري المتوفى سنة ٧٦١ هفسهل من هذا العلم موارده ، وقرب شوارده ، وذلل صعابه ، ومهد ابوابه ، قال ابن خلدون : « ما زلنا ونحن بالمغرب نسمع انه ظهر بمصر عالم بالعربية يقال له ابن هشام انحى من سيبويه » ، وقال في موطن آخر : « ووصل الينا بالمغرب لهذه العصور ديوان من مصر منسوب الى جمال الدين بن هشام من علمائها ، استوفى فيه احكام الاعراب مجملة ومفصلة وتكلم على الحروف والمفردات والجمل ، وحذف ما في الصناعة من المتكرر في اكثر ابوابها وسماه بالمغني في الاعراب واشار الى نكت اعراب القرآن كلها ، وضبطها بابواب وفصول وقواعد انتظمت سائرها ، فوقفنا منه على علم جم يشهد بعلو قدره في هذه الصناعة ، ووفور بضاعته منها ، وكان ينحو في طريقته منحاة اهل الموصل الذين اقتفوا أثر ابن جنى ، واتبعوا مصطلح تعليمه فاتى من ذلك بشيء عجيب ، دال على قوة ملكته واطلاعه والله يزيد في الخلق ما يشاء . »

ومن تآليفه : التوضيح وهو شرح لألفيه ابن مالك ، مع اغفال ذكر الابيات ، وله شرح آخر اسماه « رفع الخصاصة » فى اربع مجلدات وكتاب « التحصيل والتفصيل لكتاب التذييل والتكميل » في عدة مجلدات والتذكرة في خمسة عشر مجلداً . والقواعد الكبرى

والصغرى. واما كتابه « مغنى اللبيب عن كتب الاعاريب » فهو الغاية في بابه.

ثم ان عامة المتأخرين من النحويين صاروا عيالا على مؤلفات الزمخشري وابن الحاجب وابن مالك وابي حيان وابن هشام ، من بين شارح ومحش ومعلق مطيل او مختصر.

فشروح المفصل والكافية، والشافية، والخلاصة، والتسهيل، والارتشاف، والمغنى، وحواشيها وشواهدها اكثر من ان تحصى، وربما يكون للشرح شرح وعلى الحاشية حاشية، فالتصريح للشيخ خالد الازهري من علماء المائة التاسعة شرح للتوضيح وهذا شرح لالفية ابن مالك.

ولم يأت من بعد النحويين من اخرج للناس شيئاً جديداً بالمعنى الصحيح ،وانما كانت الهمم مصروفة الى خدمة مصنفات السابقين بالتلخيص او الشرح او التحشية والتعليق ... الخ. ومن هنا ثارت بين القوم ثائرة مناقشات لفظية يابسة انفجرت تحتها الاصول المؤصلة والمسائل المحررة والمطالب العالية المقصودة بالذات من هذه الصناعة، فبدل ان يشغلوا الطالب بتقدير القواعد وتحرير المسائل، تجدهم يخوضون معه في غير هذا الحديث فيأخذون عليه سمعه وبصره وفؤاده بسؤالات وجوابات تافهات: لم قدم هذه الكلمة على تلك وكيف جمع بين هذه وتلك، وعلام يرجع هذا الضمير، وما هو

موقع هذه اللفظة من الاعراب ، ولم جاء هذا الباب بعد ذاك الباب ، ولم عبر بهذه الكلمة دون سواها .. الى غير ذلك من سفساف الامور ، وترك اللباب الى القشور .

ولهذا نجد الطالب النابه يخوض هذه المعمعة بكل ما اوتيه من قوة ، ويصرف من الوقت والجهد الشيء الكثير ، بكل اسراف وتبذير ومع ذلك يخرج من هذه المجاجة بغير طائل ، ولا يحور بيده من وراء هذه الجعجعة شيء من الطحين ..

ومع الاسف فانا نجد كثيراً من هذه الكتب الجافة تتداولها الايدي ، وتتدارسها المتعلمة من ابناء هذا الجيل ، وما ذلك في نظرنا إلا لان يد الطباعة تناولتها قبل غيرها فاخرجتها للناس فاولع بها من نابتة العصر من لم تصل يده الى ما سواها او لم يستمد ذهنه لفهم ما وراءها من صحاح التأليف وجليلها .

ومن اشهر ما تناولته الايدي من كتب المتأخرين : كتاب الشيخ خالد بن عبدالله الازهري من علماء المائة التاسعة مثل شرحه على الاجرومية والازهرية وقواعد الاعراب وغيرها ..

ومن ذلك كتب شيخ المصنفين جلال الدين عبدالرحمن السيوطي المتوفي سنة ٩١١ هـ احد الاعلام الافذاذ الذين انجبتهم العصور المتأخرة . له في العربية مصنفات كثيرة من اشهرها : شرحه لالفية

ابن مالك ، وشرح الفيته نفسه . وهمع الهوامع شرح جمع الجوامع وهو من الكتب الممتعة ، والاشباه والنظائر النحوية . هذا وقد صنف بعض المعاصرين كتباً موجزة ، ورسائل مقتضبة لتوضع بايدي المتعلمين من ابناء المدارس النظامية تجردت من تحقيقات المتقدمين من حيث غزارة المادة وصحتها ، ولم تنتفع بما ابدعته قرائح المعاصرين من رجال التربية والتعليم ، من بدائع الاساليب ، وتوخى السهولة فى حسن الترتيب والتبويب ، ولهذا نجد جل ابناء هذه المدارس يتبرمون من صعوبة هذه الصناعة ويتهيبون السير فى مسالكها وإن صحبهم فيها الدليل الخريت ، وما ذلك الا لانهم يدرسون العلوم الاخرى مصقولة الجوانب ، مهذبة احسن تهذيب ، مبوبة احسن تبويب ، مصبوبة بقوالب قدرتها ايدي التربية العصرية ، واصول التعليم ايما تقدير . وبقى هذا العلم كغيره من علوم اللسان العربي في معزل عن هذا الاصلاح الا شيئاً قليلا لا يكاد يكون شيئاً مذكوراً .

وقد رأينا ان نذيل هذا الباب بفصل نذكر فيه اشهر الطرق التي اختطها الاولون من النحاة لتسهيل هذا العلم على المتعلمين ونعقبه بفصل نذكر فيه ما يؤخذ على معظم تلك المصنفات ولا سيما المتأخرة منها من وجوه التقصير فى هذا الشأن ..

الطرق المشهورة

سلك معظم الاولين من النحويين في تآليفهم مسلك سيبويه في

ترتيب كتابه . وكتاب سيبويه وان كان مبوباً ومرتباً الا ان ترتيبه ليس بمبني على اساس فني ، فكثيراً ما نجد مسائل في باب منبثة في ابواب اخر ، وقد تتكرر بعض المسائل في عدة ابواب ، ولهذا يتعسر على المراجع الوصول الى المسألة التي يبتغيها ما لم يكن على ذكر من موطنها قبلا ..

فهذا الكتاب وامثاله اشبه بالمجموعات العالية منها بالكتب ذات الترتيب العلمي ، والتنسيق الفني ، وما ذلك الا لان هم المؤلفين لذلك العهد كان منصرفا الى تحقيق المسائل ؛ وتقرير القواعد ، وتأييدها بالشواهد اكثر من انصرافهم الى حسن الترتيب ، ودقة التبويب .

وعندما استبحر العمران ، وتفجرت ينابيع العلوم الكثيرة من شرعية وادبية وفلسفية وغيرها اتجهت الهمم الى بذل العنايات في تقريب تلك العلوم من اذهان الطالبين ، وتسهيلها على المتعلمين ، فكان حظ العربية من هذه الناحية ليس بالقليل . اذ اقبل فريق من كبار علمائها الى لم ما تشعث من مسائلها ، وجمع ما تفرق من اصولها ، وعمدوا الى صبها فى قوالب قدروها تقديراً ، باساليب مختلفة حرروها تحريراً ..

فمنهم من نظر الى موضوع هذا العلم وهو الكلام ، فوجد ان عناصره التي يتألف منها لا تخرج عن امور ثلاثة : الاسم والفعل والحرف ، ووجد ان لكل قسم من هذه الاقسام صفات تخصه وابحاثا

تدور حوله ، فافرد لكل قسم منها بابا فصل فيها مسائله واوضح مقاصده، فيفصل في باب الاسم ـ مثلا ـ كونه نكرة او معرفة وانواع المعارف، وكونه مفرداً او مثنى او مجموعا، وانواع الجموع وكونه منونا او غير منون، وانواع التنوين ، وكونه معربا او مبنيا وانواع اعرابه وبنائه ... الخ ..

ويذكر في باب الفعل ـ مثلا ـ كونه ماضيا او مضارعا او امراً وكونه مبنيا للمعلوم او المجهول، وكونه تاما او ناقصا وانواع الافعال الناقصة ، وكونه متعديا او لازما ، وانواع التعدي ووسائل التعدية واللزوم ، وكونه معربا او مبنيا ، وانواع اعرابه وبنائه ... الخ ..

ويبين في باب الحرف ـ مثلا ـ اصناف الحروف من : عاطفة ونافية وجوابية وشرطية واستفهامية واستقبالية ومؤكدة ومصدرية ... الخ ..

وهناك امور مشتركة تتوارد فيها الاقسام الثلاثة او اثنان منها ، مثل الامالة والوقف والتقاء الساكنين وغيرها ، افردوا لها بابا برأسه ، فاستوت الابواب اربعة . واشهر من مشى على هذه الطريقة جار الله الزمخشري في كتابه المفصل والانموذج ...

ومن النحاة من رأى ان اهم ما يجب على المتعلم إتقانه تمييز المعربات من المبنيات ومعرفة انواع الاعراب والبناء فبنى ابواب كتابه على

اساس المعرب والمبنى من الكلام . على ان معظم سالكى هذه الطريقة رأوا ان ينتفعوا بشيء من اساس الطريقة السالفة ، فجعلوا معربات الاسماء فى جانب ، ومعربات الافعال فى جانب آخر ، كما فعل ابن الحاجب فى كافيته ، وابن مالك في الفيته .

ومنهم من رأى ان الاعراب اهم ما تتوجه اليه عنايات المتعلمين ، ورأى ان المعرب يشتمل على امور ثلاثة : العامل والمعمول والعمل ، وبهذا انقسمت الابواب الى ثلاثة :

فيذكر في باب العامل : النواصب والجوازم وحروف الجر والابتداء والتجرد ... الخ ..

ويشرح في باب المعمول : المرفوعات من الاسماء والافعال والمنصوبات منها والمجرورات والمجزومات ..

ويبين في باب العمل : الحركات الثلاث ، والسكون والحروف الاربعة « و ، ى ، ن ، ا » وحذفها ... الخ ...

ولابد لمن يسلك هذه الطريقة ان يفرد بابا للمبنيات كما فعل «البركوي» فى كتاب « الاظهار » ، واول من ابدع هذه الطريقة فيما نعلم عبدالقاهر الجرجاني في كتابه الذي اسماه « العوامل المائة » وقد ابدع ابن هشام طريقة فى كتاب له اسماه « قواعد الاعرب » ورتبه على اربعة ابواب ، بحث في الأول عن الجمل واقسامها واحكامها . وفى

الباب الثاني عن شبه الجملة وهو الظرف والجار والمجرور ، وفسر في الباب الثالث كلمات يكثر في الكلام دورها ، ويقبح بالمعرب جهلها ، وهي نيف وعشرون كلمة ، واشار في الباب الرابع الى عبارات محررة موجزة كثيرة الدوران على السنة المعربين ..

ثم لما ثبتت عنده بالتجربة فائدة هذه الطريقة ، عمد الى توسيعها وتحسينها وصقلها وتهذيبها فالف فيها كتابه « المغنى » المار ذكره ، مرتبا على ثمانية ابواب ، استوفى في الباب الاول منها شرح الادوات الكثيرة التي تدور في الكلام مرتبة على حروف الهجاء وشرح في الباب الثاني الجمل واقسامها واحكامها ، واوضح في الباب الثالث احكام ما يشبه الجملة وهو الجار والمجرور والظروف ، وبين في الباب الرابع احكاما يكثر دورها ولا يجمل بالمعرب جهلها ، وعقد الباب الخامس للجهات التي يدخل الاعتراض على المعرب من جهتها ، وكسر الباب السادس على التحذير من امور اشتهرت بين المعربين والصواب خلافها، وجعل الباب السابع لبيان كيفية الاعراب ، والباب الثامن لامور كلية يدخل تحتها ما لا يحصى من الامور الجزئية ..

هذه هي الطرق المشهورة البارزة ، والا فان المسالك كثيرة حتى يكاد يكون لكل مؤلف طريقة بل لكل كتاب طريقة تختلف عن غيرها ولو من بعض الوجوه . ولكن العمود الاصلي ما ذكرناه من

الطرق الاربع ، وما عداها فانه يرجع اليها من حيث المجموع ، وان اختلف عنها بعض الشيء ...

الصرف

أول من فصل الصرف عن النحو وصيره علما مستقلاً هو معاذ ابن مسلم الهراء المتوفي سنة ١٨٧ ه.

ويذهب بعضهم الى ان واضعه ابو عثمان المازنى المتوفى سنة ٢٢٩ ه والاول هو الصحيح ..

ثم جاء ابو الفتح ابن جنى ، ففتح من هذه الصناعة مغاليقها ، وسهل صعابها ، ووسع رحابها ..

ثم تتابع الناس فى خدمة هذا الفن فكتب ابن مالك كتابا فيه ، وشرحه فسماه : « التعريف » .

وكتب ابن الحاجب مقدمته المعروفه بالشافية ، وتكاثرت عليها الشروح والحواشي حتى صارت تعد بالعشرات ، وكثير من شروحها مطبوع متداول ، وقد طبعت لهذا العهد مجموعة تحتوي على طائفة من تلك الشروح والحواشي .

وكثير من المؤلفين يختمون كتبهم بابحاث في التصريف كما فعل ابن مالك في الفيته ، والجلال السيوطي في كتابه « همع الهوامع » على ان معظم ابواب التصريف مبثثة في ثنايا كتب النحو لمكان الحاجة اليها هناك .

ومن الكتب الموجزة فى هذا الفن : نزهة الطرف فى علم الصرف للميداني ومراح الارواح لعليّ بن مسعود ، والعزى والمقصود . وكل ذلك مطبوع متداول ..

وللاعاجم ولوع في مدارسة هذا الفن لمسيس الحاجة بالنسبةاليهم ، اما العربي فيعرف كثيراً من مسائله بمقتضى سليقته فلا يجد كبير فائدة بالمقدار الذي يجده الاعجمي ، ولهذا قل المؤلفون فيه من ابناء العرب...

بعض عاهات الكتب المتداولة

في النحو لهذا العهد

لا نريد في هذا المقام ان نمعن في الاستقراء والاستقصاء ، وكل ما نرمي اليه ان نلقي نظرة عجلى على جمهرة الكتب التي اتخذ منها المعاصرون مناهج لدراسة النحو في المدرسة القديمة او الحديثة ، ونشير الى بعض العاهات التي منيت بها ، وغضت من شأنها في انظار ابناء العصر ، بل قللت الانتفاع بها الا بعد الجدّ والكدّ ، والاسراف في الوقت ، ويمكن اجمال البارز من تلك العاهات في النقاط التالية :

١ – الايجاز الشحيح الى حدّ الاخلال المقصود ، ولا سيما في المتون التي وضعها المتأخرون وفي مقدمتهم الامامان ابو عمرو عثمان بن الحاجب وابو عبدالله محمد بن عبدالله بن مالك ، وقد تبارى المؤلفون في هذا الشأن ، ولا تباري الفرسان في مضمار الرهان ، يشبعون المعاني ويجيعون الالفاظ حتى تصاب بالهزال والبهر ، فلا تقوى على حمل ما اثقلت به من المعاني فتحور الى طلاسم ومعميات يتعذر على الطلبة الاستقلال بحل رموزها الا بعد الفزع الى المشايخ ، ويتعسر على هؤلاء الكشف عن غوامضها الا بعد الرجوع الى الشروح والحواشي والتعاليق .

وقد نعى ابن خلدون على القوم طريقتهم هذه ، وافرد لذلك فصلا خاصا فى مقدمة تاريخه قال فيه : « وهو فساد فى التعليم وفيه اخلال بالتحصيل .. » وقال : « قصدوا الى تسهيل الحفظ على المتعلمين فاركبوهم صعبا يقطعهم عن تحصيل الملكات النافعة وتمكنها .. » .

ومسألة الحفظ هذه كانت اولى الغايات وآخرها فى هذه المعضلة ، يجورون على العبارة كل الجور في التقتير والتقدير ليسهل على الحافظة ازدرادها ، وفاتهم ان العلوم انما تطلب لتفهم وترسخ ملكاتها فى العقول ، واما الحفظ المجرد عن الفهم بل الهضم فاثمه اكبر من نفعه ، وضرره في الذهن لا يقل عن الاضرار التي تصيب المعدة من جراء الاطعمة التي تزدهى فيها من غير مضغ وتحليل ، وان استظهار الالفاظ قبل تحديد معانيها الصحيحة في الذهن تحديداً واضحاً يلجأ الذهن بعد الحيرة - الى خلق معان لها قد تكون قصية عن المقصود ، ولكنها تأخذ في الذهن مكانها وتستعصي فيه ويعسر بعد ذلك على المعاني الصحيحة زحزحتها واحتلال مكانها فيحصل من هذا التدافع فوضى ذهنية يستعصى على اطبة النفوس استئصالها .

ولهذا نرى علماء النفس يشددون النكير على من يعلم الطفل لفظاً قبل تحديد معناه فى ذهنه تحديداً واضحاً ، ويستعينون على ذلك بالمحسوسات او ما يقرب منها ، ومن ثم ذهب بعض الاعلام من اولينا

الى انه لا ينبغي ان يؤخذ الاحداث بحفظ القرآن الكريم الا بعد ان يستعدوا لفهمه بتقديم دراسات اخرى . وقال ابو بكر بن العربى : « يا غفلة اهل بلادنا في ان يؤخذ الصبي بكتاب الله في اول امره ، يقرأ ما لا يفهم...» . وقد استحسن العلامة ابن خلدون هذا المذهب وان اعتذر لطبيقه بحكم العادة ..

٢ — عدم التدرج في ترتيب المسائل ، ورصف القواعد ، فتراهم كثيراً يستعينون بالمجهول لايضاح مجهول مثله فيقولون — مثلا — « المعرب هو المركب الذي لم يشبه مبنى الأصل » مع ان الطالب لم يعرف المبنى المطلق فضلا عن مبنى الاصل . واذا سأل عن المبنى قيل له : « هو المركب الذي اشبه مبنى الاصل . » ويقولون ـ مثلا ـ « الرفع علم الفاعلية ، والنصب علم المفعولية ، والجر علم الاضافة . » مع ان الطالب لم يعرف شيئا بعد من امر الفاعلية والمفعولية والاضافة ، ومعرفة ذلك كله تتوقف على ذكر الكثير من الفصول والابواب .

وهكذا يجد الطالب نفسه تجاه مجهولات تتكاثر وتتكاثف وغوامض تتراص وتتراكب ، فلا يقوي على تذليلها الا اذا رزق صبراً رصيناً ، وقيض الله له شيخاً بارعا يعرض امامه سلسلة من المقدمات كثيرة الحلقات ، ثم لا يصل الى المقصود الا بعد جهد جهيد .

ولا ينكر ان بعض المؤلفين انتبه لهذا الامر وحاول التسهيل على

المبتدئين فلا ينتقل الى مجهول ـ غالباً ـ الا بعد ان يمهد له بمعلوم او يوضحه عن قرب ليصل بالطالب الى غرضه من اقصر الطرق واسهلها. ويذكر فى مقدمة هؤلاء الافذاذ ابو عبدالله محمد بن محمد الصنهاجي صاحب المقدمة المعروفة بالاجرومية فانه اقتصر فيها على اللباب وقلل من استعمال المجهولات فى ايضاح المجهولات ، وذكر بعض الابحاث باكثر من اسلوب لترسيخها في الفهم ، ومشى فى كثير من المسائل على مذهب الكوفية ـ مع انه مرجوح عند المغاربة والمشارقة من نحاة عصره ـ تسهيلا على المبتدئين من المتعلمين ، لان مذهب الكوفية في هذه المسائل اقرب تناولا الى اذهانهم من مذهب البصرية .. ولكن الشراح والمحشين لم يأبهوا لهذه المزايا ولا حسبوا لها حسابا فاحاطوها بما ذهب بفوائدها وعفى على آثارها من غوامض المسائل ، وغريب المباحث ..

اذكر اني فى مفتتح دراستي العربية اخذت هذه المقدمة « الاجرومية » وجلست الى الشيخ لاقرأ ، فقال لي : ان المتن المجرد عن الاعراب لا يفيدك الفائدة المطلوبة واخرج لي نسخة مخطوطة تشمل الصفحة منها على اسطر قليلة ذات كلمات متباعدة ، وشحة بتعاليق كثيرة ، على اوضاع خاصة ، وباشكال مختلفة ، فأعطانيها واندفع يسرد لي معنى البسملة بكلام طويل عريض لم افهم منه الا القليل ، وامرني

باستظهار اعرابها: « الباء حرف جر واسم اسم مجرور بالباء ، وعلامة جره كسرة ظاهرة فى آخره، والجار والمجرور متعلق بمحذوف تقديره ابتدئي او ابتدائي ، وهو مضاف ولفظ الجلالة مضاف اليه وهو مجرور بالاضافة... الخ .. » وكان اليوم الثاني، وكان الموضوع « الكلام » فاندفع يشرح لي معناه عند اللغويين والفقهاء والمتكلمين ثم النحويين بكلام غمّ عليّ اكثره ، ثم امرني باستظهار الكلام بتعريفه ثم اعرابه « الكلام مبتدأ مرفوع بالابتداء - على الاصح - وعلامة رفعه ضمة ظاهرة في آخره « هو » ضمير فصل لا محل له من الاعراب ... الخ » وهكذا وجدتني تجاه عباب زاخر بمصطلحات لا اعرف لها اولا ولا آخراً : الحرف ، الاسم ، الجر ، المجرور ، المتعلق ، المحذوف ، المضاف اليه ، الاضافة ، النعت ، التبعية ، المبتدأ ، الابتداء ، الرفع ، المرفوع ، ضمير الفصل ، الاعراب ... الخ . الفاظ اشتغل ذهني في ان يفرض لها معان ، فاخذ يصوغ ويكسر . وبعد جهد جاهد لم يحصل الا على الجمجمة والترجيم ، ففزعت الى شرح استعين به فوقع في يدي شرح الشيخ خالد الازهري ونظرت فيه واذا بي تجاه مشاكل جديدة : جنس فصل ، وضع نوعي ، وضع شخصي الى اشياء من هذا القبيل لا يدركها الا مَنْ ضرب بسهم في العربية وعلوم اخرى ، وبالاخير هداني التسآل الى شيخ نبيه فارشدني الى الاقتصار على فهم المتن وحده ، ثم

الرجوع الى شرح مختصر مقصور على ايضاح المواد باسهل العبارات ، والذي يظهر لنا ان الكثير من تلك المؤلفات وضعها مؤلفوها لتلاميذهم ، وكانوا يقدرونها على استعدادهم ومؤهلاتهم تقديراً ، فاذا اراد آخرون لم تتوفر فيهم تلك المؤهلات ان يقتطفوا مثل ما اقتطف اؤلئك من ثمارها اعياهم ذلك - وما قولك ان جمهرة المؤلفين في هذا الشأن من المعاصرين - على شدة عنايتهم في صقل مؤلفاتهم - ذهلوا عن هذا الامر فوقعوا في المحظور التعليمي الذي وقع فيه من سبقهم ، مع انهم وضعوا كتبهم لتلاميذ لم تكن حصة العربية من وقتهم وعنايتهم الا ضئيلة فكان عليهم الا يدخروا وسعا في التهذيب وحسن الترتيب والتبويب ، نجدهم يقولون - في مبادئ كتبهم مثلا - « الفعل المتعدي هو الذي ينصب المفعول به ، والفعل المعلوم هو الذي يذكر فاعله » مع ان الطالب لم يعرف شيئا من امر : النصب والمفعول به والفاعل ، وتفهيمها يتوقف على دراسة ابواب لم تزل معقودة في ناصية المستقبل .

يقال : ما العمل والامر يقضي بايضاح تلك المسائل والايضاح يتوقف على الاستعانة بهذه المصطلحات وان لم يجر ذكرها بعد ، فالجواب انه لا يجوز التعرض لايضاح مسألة ما الا بعد اعداد العدة لها ، وتوضيح العناصر اللازمة لايضاحها قبل الاقدام عليه فلا يبحث عن المتعدي واللازم مثلا الا بعد معرفة النصب والمفاعيل ولا عن المعلوم

والمجهول الا بعد معرفة الفاعل وما ينوب عنه . وبالجملة فانه لا تجوز الاستعانة بمجهول لمعرفة مجهول آخر ، بل يجب ان تكون الاستنارة بالمعلومات وحدها ..

٣ — الخلط بين مسائل هذا العلم ومسائل من علوم اخرى لا تمس الحاجة اليها ، وليس فى مقدور الطالب اساغتها وادراك ما وراءها ، هذا ديدن المتأخرين من الشراح والمحشين ، مثال ذلك قول الشيخ خالد الازهري في شرحه على الاجرومية : « والصحيح ان الكلام موضوع بالوضع النوعي » ومن اين للمبتدئ ان يدرك مسألة كهذه عجز فحول علماء الوضع والاصول عن حلها حلا نهائيا . ويقول الشيخ المذكور في شرح ازهريته : « والمفرد ثلاثة اقسام : اسم وفعل وحرف لانه لا يخلو ان يستقل بالمفهومية اولا ، الثانى الحرف والاول اما ان يدل بهيئته على احد الازمنة الثلاثة اولا . الثاني الاسم والاول الفعل ، والعناد حقيقى بمنع الجمع والخلو ، وقد علم بذلك حد كل واحد منها للاحاطة بالمشترك وهو الجنس وبابه يمتاز كل واحد عن الآخر وهو الفصل » أه . بحروفه وهو كما نرى كلام مغلق لا يعقله الا من ضرب فى علم المنطق بنصيب وانّى للطالب المبتدئ ذلك ؟! وفى مثل هذا الموطن يقول شارح القطر : « فان علماء هذا الفن تتبعوا كلام العرب . » فينطلق المحشي يشرح لفظ العرب واشتقاقه وجمعه ومن هم العرب

واقسامهم .. الخ . مما لا مساس له في الموضوع . ويأتي ذلك الشارح في باب العطف بشاهد على ان حتى لا تفيد الترتيب ، وهو الحديث المأثور : « كل شيء بقضاء وقدر حتى العجز والكيس ، فينطاق المحشي يوضح حقيقة القضاء والقدر وما بينهما من فرق او عدمه، ويسرد في ذاك آراء المتكلمين من اهل المذاهب المختلفة ، ويأتي الشارح بمثال للماضي المبدؤ بالنون وهو « نرجست الدواء » فينطلق المحشي بسرد خصائص النرجس الطبية وغيرها ، ومما جاء في النرجس ... الخ ص ١٥ .

نعم من الجائز ان يستعان في ايضاح مسائل من علم، بمسائل من علم آخر ولكن على شرطين : الاول ، ان تلك المسائل يتعذر او يتعسر ايضاحها الا بذلك . والثاني ان يكون الطالب على علم من تلك المسائل الخارجة عن عمله الذي هو بصدد دراسته .

٤ — عدم الموازنه بين مقدرة الطالب وما يحشد له من عويص المسائل وسهلها ، فانك اذا تصفحت مبادئ الكتب التي وضعها المتأخرون للمبتدئين من المتعلمين تجد فيها معضلات المسائل محشورة الى جانب السهل منها ...

٥ — حشد القيود الكثيرة ، والرموز العديدة في العبارة القصيرة ولا سيما في التعاريف مما يتعسر بل قد يتعذر على الطالب تفلية تلك القيود واستخلاص المراد من كل منها .

٦ – المناقشة على الالفاظ ، مما لا يعود الى جوهر العلم بفائدة ، وهذا امر عمت به البلوى فى معظم كتب المتأخرين .

٧ – التوسع فى النظريات التي لا يجتني الطالب من ورائها فائدة عملية ، مثل تنازعهم على اعراب جمع المذكر السالم هل هو بالحرف ام بالحركة المقدرة ، وكذلك فى اعراب الاسماء الخمسة او الستة فقد ارتقت الآراء في ذلك الى نحو العشرة . وتنازعهم هل المضاف الى ياء المتكلم مجرور بالكسرة المقدرة او الظاهرة . وامثال ذلك كثيرة .

٨ – الاعتماد على الامثلة الجافة المكررة واهمال المهم من الشواهد التي هي مادة الكلام ، وعدة المتكلم ، ولذلك نجد ان كتب ابن هشام من انفع الكتب المصنفة فى هذا الشأن من هذه الناحية ، لما تشتمل عليه من الآيات الكثيرة ، والاحاديث البليغة ، والامثال السائرة ، والابيات الغزيرة ، وابعد الكتب عن هذه الطريقة كتب الاعاجم مثل الاظهار للبركوي ، وشرح الملا جامي على الكافية ، ولذلك نجدها قليلة الجدوى يقرأها الطالب وكأنه لم يقرأها ، وللشواهد اثر بليغ فى تكوين ملكة البلاغة عند الطالب ولذلك نجد كتب الاقدمين غاصة بها واقرب مثال فى ذلك كتاب سيبويه ، فانه يشتمل على اكثر من الف بيت من الشعر ، وعلى مئات الآيات والامثال وعيون الاقوال ، وهذه كتب الشواهد بين ايدينا نستمد منها الكثير من الفوائد ، ولقد كتب احد علماء المائة الثامنة شرحا ممتعا على كافية ابن

الحاجب شحنه بالشواهد والفوائد . فجاء الشيخ عبد القادر البغدادي وشرح تلك الشواهد فى كتابه المسمى « خزانة الادب » شحنها بالفوائد الادبية ، والفرائد اللغوية ، والنوادر النحوية والصرفية الى غير ذلك مما يسمو بالطالب الى المستوى الرفيع .

وقد عانى بعض المعاصرين التأليف فى هذا العلم وحاولوا تجريد مؤلفاتهم من العاهات التي تنوء بها بعض الكتب المتداولة فيه ولكن اكثرهم وقف دون الغاية وعجز عن اتمام المعالجة ولا تزال الهمم مصروفة الى معالجة هذه الناحية وعلى الله قصد السبيل .

تأريخ علم البلاغة

انك لا ترى علما هو ارسخ اصلا ، وابسق فرعا ، واحلى جنى ، واعذب وردا ، واكرم نتاجا ، وانور سراجا ، من علم البيان الذي لولاه لم تر لسانا يحوك الوشي ، ويصوغ الحلى ، ويلفظ الدر ، وينفث السحر ، ويقرى الشهد ، ويريك بدائع الزهر ، ويجنيك الحلو اليانع من الثمر ... الا انك لن ترى - على ذلك - نوعا من العلم قد لقى من الضيم ما لقيه ، ومني من الحيف بما مني به ، ودخل على الناس من الغلط في معناه ما دخل عليه فيه ، فقد سبقت الى نفوسهم اعتقادات فاسدة ، وظنون رديئة ، وركبهم فيه جهل عظيم ، وخطأ فاحش .. » من كلمة للشيخ عبدالقاهر الجرجاني في صدر كتابه « دلائل الاعجاز » .

يفهم ان علم البيان كان معروفا بهذا الاسم من قبل ان يضع عبدالقاهر فيه كتابه هذا ، وان للناس في هذا العلم مقالات دائرة بين الاستقامة والعوج .

وقال ابو هلال بن عبدالله العسكري المتوفي سنة ٣٩٥ هـ في مقدمة كتابه « الصناعتين » : ان احق العلوم بالتعلم واولاها بالتحفظ - بعد المعرفة بالله جل ثناؤه - علم البلاغة ، ومعرفة الفصاحة ... وقد علمنا ان الانسان اذا اغفل علم البلاغة ، واخل بمعرفة الفصاحة ، لم يقع علمه

باعجاز القرآن من جهة ما خصه الله به من حسن التأليف ، وبراعة التركيب ، فينبغي من هذه الجهة ان يقدم اقتباس هذا العلم على سائر العلوم ... ولهذا العلم بعد ذلك فضائل مشهورة ، ومناقب معروفة ..»اه

وبعد ان ذكر جملة من اقاويل علماء العربية ، وأبان ما فيها من الزيف والحطة قال : « فلما رأيت تخليط هؤلاء الاعلام في ما رأوه من اختيار الكلام ، ووقفت على موقع هذا العلم من الفضل ، ومكانه من الشرف والنبل ، وجدت الحاجة اليه ماسة ، والكتب المصنفة فيه قليلة ، وكان اكبرها واشهرها كتاب « البيان والتبيين » لابي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ » .

اذا علمت هذا ثم رجعت البصر الى كتاب الصناعتين نفسه وما يحتويه من الابواب ، ثم رجعت الى كتاب « البيان والتبيين » وما يشتمل عليه من المباحث يتبين لك ان ما يعنيه القوم من علم البلاغة غير ما نعنيه نحن اليوم منه ، فانهم كانوا يريدون به تلك المباحث التي تدور حول الخصائص التي ترفع قدر الكلام وتكسوه جمالاً وجلالا ، مع بيان العيوب التي تحط من قدر القول وتكسبه قبحاً وسخافة . وبعبارة اخص : المباحث الدائرة حول حسنات القول وعيوبه ، وكانت تلك المباحث مفرقة في مطاوي ابحاث كثيرة ليست من اصل الموضوع في شيء ، منبثة هنا وهناك غير وافية بالمرام .

واول مَنْ لَمّ من هذه المباحث شعثها ، وجمع شتاتها ، ولاءم بين شواردها ، ورَصّ من قواعدها ، وقرّبَ من فوائدها ، واخرج للناس منها علماً بالمعنى الصحيح المراد من العلم هو الامام عبد القاهر الجرجاني المتوفي سنة ٤٧١ ﻫ فانه كتب فيها كتابين جليلين اسمى احدهما « اسرار البلاغة » والثاني « دلائل الاعجاز » بحث في الأول عن الوجوه التي تكسب القول شرفاً وتكسوه جلالاً ، من حيث اشتماله على استعارة مستحسنة ، او كناية لطيفة ، او تمثيل بليغ ، او تشبيه طريف ... الخ . فالاول ينتظم مباحث علم البيان بالمعنى المعروف اليوم . والثاني ينتظم مباحث علم المعاني كذلك ، ولم يشر الشيخ الى هذه التسمية لانه لم يكن يرى ان هناك علمين متمايزين احدهما يسمى علم البيان والآخر علم المعاني ، وكل ما كان يراه ان هناك علماً واحداً غاية الخائض في غماره ان يستثير الاسرار التي ترفع من قدر الكلام ، وتمنحه رتبة الشرف ، وتحله ذروة البلاغة ، وبتتبع تلك الخواص والمزايا التي يتمتع بها القول البليغ فيبرزها للانظار سافرة من غير ما حجاب ...

واول من شطر هذه المباحث شطرين فسمى مباحث النظم - علم المعاني - ومباحث المجاز والتشبيه والكناية - علم البيان - ابو يعقوب يوسف بن ابى بكر السكاكي المتوفي سنة ٦٢٦ ﻫ . وهو الذي تناول هذا العلم من بعد الجرجاني فهذب مسائله ، ورتب ابوابه ، واودعه كتابه الموسوم بـ « مفتاح العلوم » .

ولا يذهبن بك ما ذكره العلامة ابن خلدون فى مقدمته الى ان السكاكى اول من وضع هذا العلم لان عبارة ابن خلدون لا تفيد هذا المعنى وانما تفيد ان السكاكى اول من هذب هذا العلم ومخض زبدته ، وبوبه التبويب الذي شاع بين العلماء والمتعلمين من بعده .

وقد اودع الامام ابو القاسم الزمخشري المتوفي سنة ٥٣٨ ﻫ كتابه « الكشاف عن اسرار التنزيل » من افانين البيان ما بهر العقول ، وخلب الالباب ، ولكن لما كانت تلك المباحث منبثة في مطاوي التفسير غير مقصودة لذاتها وانما المقصود بها الكشف عن اسرار بلاغة الكتاب العزيز لم يشتهر الزمخشري بين علماء البيان اشتهار الشيخين الجرجاني والسكاكى .

وبعد ان اخرج للناس كتاب « مفتاح العلوم » وقد ميزت فيه المباحث التي يعرف بها كيفية مطابقة الكلام لمقتضى الحال وهي مباحث النظم في مصطلح عبد القاهر - عن مباحث المجاز والكناية والتشبيه ، واطلق على المباحث الاولى اسم « علم المعاني » وعلى الثانية « علم البيان » . اقبل الناس على هذا الكتاب يتدارسونه ويتنافسون فى اقتنائه والانتفاع به .

وقد الف ابن مالك الطائي - صاحب الالفية - من بعد السكاكي كتابا اسماه : « المصباح فى علوم البلاغه » لم يحظ بشيء من الشهرة التي حظى بها المفتاح ، وقد طبع .

ثم جاء الامام محمد بن عبد الرحمن القزويني المعروف بالخطيب المتوفى سنة ٧٢٩ هـ فلخص القسم الثالث من المفتاح وهو قسم المعاني والبيان والبديع ، وسماه « تلخيص المفتاح » ضمنه ما في هذا القسم من القواعد ، وجعله مشتملا على ما يحتاج اليه من الامثلة والشواهد ، وبذل جهده فى تحقيقه وتهذيبه ، ورتبه ترتيباً اقرب تناولا من اصله ، ولهذا اقبل الناس عليه اقبالا عظيماً ، ونال من الشهرة ما لم ينله كتاب غيره فى بابه ، فتناولته اقلام كبار العلماء بالشروح والحواشي والتعاليق ، حتى اصبح ما كتب عليه يعد بالعشرات ، واشهرها شرح سعدالدين مسعود بن عمر التفتازاني المتوفى سنة ٧٩١ هـ الذي اسماه « المطول » وهو اشهر من نار على علم ، واليه المنتهى عند المشتغلين بالعربية من علماء الدين ولا سيما الاعاجم منهم ، وقد اختصره بكتاب مشهور ايضا اليوم بين المحصلين ومن شروح التلخيص المشهورة « عروس الافراح » للشيخ بهاء الدين السبكي ، والاطول للشيخ عصام الدين ..

وقد طبعت لهذا العهد مجموعة فى خمسة مجلدات كبار تحتوي على طائفة من شروح التلخيص ، وعلى كتاب الايضاح للخطيب القزويني ايضا ، وهو مرتب على ترتيب التلخيص ولكنه اوسع منه فهو كالشرح له ، وقد كان يعاصر الخطيب القزويني السيد يحيي بن حمزة العلوي احد امراء المؤمنين اليمانيين « توفى سنة ٧٤٩ هـ » فالف في هذا الشأن كتابا

جليلا اسماه « الطراز المتضمن لاسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز » رتبه على ثلاثة فنون ، جعل الفن الاول للمقدمات ورسم الثاني للمباحث المتعلقة بعلوم المعاني والبيان والبديع ، وافرد الثالث لبيان فصاحة القرآن واسرار الاعجاز وقال : « ان الباعث على تأليف هذا الكتاب هو ان جماعة من الاخوان شرعوا عليّ في قراءة كتاب الكشاف تفسير الشيخ العالم المحقق استاذ المفسرين محمود بن عمر الزمخشري ... فسألني بعضهم ان املي فيه كتابا ... الخ . »

وقال : انه لم يطالع من الدواوين المختلفة في هذا الشأن الا كتبا يسيرة ، وانه لم يقف على كتابي الجرجاني « دلائل الاعجاز واسرار البلاغة » مع شدة شغفه بحبها ، واعجابه بهما .. الخ .

ولكن هذا الكتاب لم ينل من الشهرة ما ناله المفتاح وتلخيصه ، وما كتب عليهما من الشروح والحواشي والتعاليق ..

وجاء الجلال السيوطي المتوفي سنة ٩١١ هـ فكتب فى هذا الشأن عدة كتب اشهرها منظومته المسماة « عقود الجمان في المعانى والبيان » وشرحها .

والمتتبع لحركة هذا العلم يجد انه لم يتقدم من بعد السكاكي تقدما ذا شأن . وكل ما فعله الخطيب القزويني ، ان هذب ما جاء به السكاكي وبوبه تبويبا يسهل تناوله على المتعاطين ، وقرّب مسائله تقريبا كان السبب فى اقبال الناس على كتابه ، والاعتماد عليه .

وكان العلماء من قبل السكاكي ، ينظرون الى هذا العلم بنظر اوسع وكانوا لا يرون حصره فى الدائرة التي حصروه فيها والابواب التى قصروها عليه ، فكانوا يرون انه شامل لكل ما يبحث فيه عن خواص الكلام التي ترفع من قدره والاسرار التى تكسبه نبلا ، وهذه الاسرار وتلك الخصائص اكثر من ان تتسع لها الابواب التى اختطها لها السكاكى والقزوينى ومن مشى على اقدامها .

فالمفتاح وتلخيصه والايضاح وان كانت احسن من غيرها من حيث التبويب الفني ، والتنسيق العلمي من الوجهة النظرية ، الا ان ما كتبه عبدالقاهر الجرجانى ومن اقتفى أثره من العلماء اقوى اثراً في تقويم الالسنة ، وتثقيف الاقلام من الوجهة العلمية ، فالنوع الاول يتخرج به علماء في فنون البلاغة ، والثانى يتخرج به بلغاء حتما ..

وقد ثبت بالتجربة ان معظم اؤلئك الذين يعتمدون في تحصيلهم على التلخيص وشروحه وحواشيه وما الى ذلك ، يتعسر على احدهم ان لم نقل يتعذر ان يكتب رسالة صحيحة فضلا عن ان تكون بليغة ، وقد بلغنا لهذا العهد ان شيخا من مشيخة هذا الشأن اكب على تدريس المطول ومختصره وحواشيهما وحواشي حواشيهما ، اربعين سنة ونيفا ثم شهد حفلا فطلب اليه الوالي ان يفوه بشيءٍ من الدعاء ، فما استطاع ان يلائم بين عبارتين او يزاوج بين كلمتين صحيحتين فضلا عن كونهما فصيحتين ..

وامثال هذا الشيخ البكيء من المتخرجين بمدرسة القزويني ليس بالعدد القليل ..

ولما ظهرت طلائع النهضة الادبية فى مصر ، ولاحت تباشير الاصلاح العلمي هناك ، وانشئت جمعية احياء العلوم العربية ، كان على رأسها الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده فرأى ما عليه كتب المتأخرين من الجدب والجمود ، فرجع ببصره الى آثار الاقدمين فوجد ان كتابى عبدالقاهر الجرجانى من احسن ما اخرج للناس في موضوعها فبادر الى تدريسهما فى الجامع الازهر فانتظم فى حلقته اذ ذاك جماعة كبيرة من نبهاء الطلاب ، وانظم اليهم طائفة من اهل العلم والفضل ، فكان لهذا العمل اثره الخالد ، فقد تخرج بهذه الحلقة فئة ضربت في البلاغة بأيمن سهم واوفر نصيب ، تزينت بها صدور المحافل ، ورؤوس المنابر ، وحلقات المدارس ، ولها الفضل الاوفر في رفع منار الآداب ، وتأييد دولة الاقلام فى عصرنا هذا ..

البديع

أول من ابدع هذا الاسم لهذا العلم عبدالله بن المعتز ، وهو أول من دونه ولاءم بين شتات مسائله ، فقد قال في صدر كتابه الذي الفه فيه : « وما جمع قبلي فنون البديع احد ، ولا سبقني الى تأليفه مؤلف ، والفته في سنة اربع وسبعين ومائتين ، فمن احب ان يقتدي بنا ، ويقتصر على هذا فليفعل ، ومن اضاف من هذه المحاسن او غيرها شيئـا الى البديع ، وارتأى غير رأينا فله اختياره ... »

وكان جملة ما جمعه من انواع البديع سبعة عشر نوعا ، وكان ممن يعاصره قدامة بن جعفر الكاتب ، وقد جمع كتابا في البديع ضمنه عشرين نوعا ، توارد مع ابن المعتز على سبعة انواع وبقي له ثلاثة عشر ، فكان مجموع ما جاؤا به ثلاثين نوعا . وجمع ابو هلال العسكري في كتاب الصناعتين سبعة وثلاثين نوعا . وجمع ابن رشيق القيرواني مثلهـا في عمدته ، وجمع شرف الدين التيفاشي سبعين نوعا ، واوصلها زكي الدين بن ابي الاصبع في كتاب التحرير الى التسعين . والظاهر ان اقدام المؤلفين ازدحمت حول هذا العلم منذ كان في المهد ، فقد ذكر ابن ابي الاصبع انه لم يؤلف كتابه المذكور الا بعد ان وقف على اربعين كتابا في هذا العلم او بعضه ..

ثم جاء صفي الدين الحلي المتوفي سنة ٧٥٠ ﻫ فنظم بديعيته الذائعة الصيت في مائة وخمسة واربعين بيتاً اشتملت على مائة وواحد وخمسين نوعاً، وقد جعل كل بيت منها مثالاً لنوع، وربما اتفق في البيت الواحد منها النوعان والثلاثة، والمعتمد منها ما اسس عليه البيت.

وقد اقتصر الصفيّ الحليّ على نظم ما جمعه من الانواع، واغفل ما اخترعه هو نفسه منها، وقد شرح بديعيته هذه شرحاً مفيداً.

وكان يعاصر الشيخ صفي الدين ابو عبدالله محمد بن احمد الهواري الاندلسي، فنظم بديعيته على وزن بديعية الحلي ورويها تعرف بـ «بديعية العميان» لان ناظمها كان مكفوف البصر، ولا يعلم ايهما السابق الى النظم على هذا الغرار وان كان الحلي قد استوفى من الانواع ما لم يستوفه الاندلسي.

والذي نظنه ان الذي نبه الرجلين الى سلوك هذا المنهج انما هو الشيخ شرف الدين البوصيري المتوفي سنة ٦٩٥ ﻫ في قصيدته المشهورة المعروفة بالبردة او البرأة، فانها من ابلغ ما كتب في مدح النبي (ﷺ)، وقد اشتملت من البديع على معظم انواعه، وان لم يتعمد ناظمها ماتعمده الحلي والاندلسي من بعده من التزام استقصاء الانواع البديعية، وقد اشتهرت هذه القصيدة في زمن ناظمها اشتهاراً طارت على اجنحته شرقا وغربا، ومما يزيد ظننا ترجيحا ان بديعتي الرجلين جاءتا متفقتين مع

بردة البوصيري وزنا ورويا، وغرضا . فان القصائد الثلاثة في مدح النبي (ﷺ) والبوصيري اسبق الثلاثة الى هذا الغرض بل هو ابن بجدته وزعيم جماعته ، والحلي ومعاصره الاندلسي ليسا المجليين في هذه الحلبة ، وهي نظم انواع البديع بهذا الاسلوب البديع فقد سبقهما الشيخ امين الدين علي بن عثمان السليماني الاربلي المتوفي سنة ٦٧٠ ﻫ في لاميته التي مطلعها :

بعض هذا الدَلال والادلالِ   حالَ بالهجرِ والتجنب حالى

فانه ضمن كل بيت منها نوعا من انواع البديع او اكثر .

ثم جاء قوم ارادوا ان يأتوا بما لم تستطعه الاوائل ، فنظموا بديعيات التزموا فى كل بيت منها التورية باسم النوع الذي اسس عليه البيت فاذا نظم احدهم فى حسن الابتداء، وبراعة الاستهلال مثلا يقول :

لي فى ابتدا مدحكم يا عرب ذي سلم

براعة تستهل الدمع فى العلم

واذا جاء حسن التخلص قال :

ومن غد اقسمه التشبيب فى غزل

حسن التخلص بالمختار من قسمى

وقد اوقع هذا الالتزام ذويه في ورطة التعقيد والانحراف عن المنهج السوى للافصاح عما في الضمير ..

واول من التزام هذا في بديميته الشيخ عز الدين الموصلي في بديعيته التي مطلعها :

براعة تستهل الدمع في العلم　　عبارة عن نداء المفرد العلم

وتلاه الشيخ تقي الدين بن حجة الحموي المتوفي سنة ٨٣٧ ه في بديميته التي كتب عليها شرحه المعروف « بخزانة الادب » ثم تلاها صدر الدين بن معصوم الحسيني المدني المتوفى سنة ١١٠٤ ه في بديعيته التي مطلعها :

حسن ابتدائي بذكرى جيرة العلم　　له براعة شوق يستهل دمي

وبديعيته هذه من اجود ما نظم من البديعيات التي التزم فيها اصحابها التورية باسم النوع الذي يؤسس عليه البيت ، ولقد كتب عليها شرحا موسعاً اسماه « انوار الربيع في علم البديع » وهو احسن كتاب جامع في هذا الباب ، بل هو مجموعة ادب ثمينة عزيزة النظير ..

واغرب بديعية وقع عليها نظري بديعية للخوري ارسانيوس الفاخوري يمدح بها المسيح عليه السلام والحواريين ، ومع افلاس صاحبها في هذه الصناعة التزم التورية بالنوع ، فجاءت تئن سقما ، وتتداعب انحلالاً وضعفا ، وهاك نموذجا منها :

براعة المدح في نجم ضياه سمى
تهدى بمطلعها من عن سناه عمى

فلم اطابق على بعد الاحبة لي   اني اطابق في قربي لخدرهم

وهكذا تسمع ما شئت من سخف وهذيان، نسأل الله العافية ..

هذا ومن الواضح ان علم البديع يعتبر من ملحقات علمي المعاني والبيان او من متمماتهما حتى ان بعضهم يطلق اسم البديع على هذه العلوم الثلاثة كلها .. ولهذا نجد علماء البلاغة لا يخلون كتبهم من ذكر طائفة من انواعه كما فعل الشيخ عبدالقاهر في كتابيه فانك لتجد جملة من هذه الانواع منبثة في مطاوي ذينك الكتابين . وكذلك فعل السكاكي فانه الحق بعلمي المعاني والبيان جملة صالحة من انواع البديع ، وتبعه الخطيب القزويني في ذلك ، وبالجملة فانك قلما تجد كتابا في المعاني والبيان الا وهو مذيل بطائفة من انواع البديع ، ونحن نذكر في صدر هذا البحث الكتب التي الفت في علم البديع على سبيل الاستدلال .

ولا نختم هذا الفصل قبل ان نذكر ان ما اولع به المتأخرون مما سموه بديعا ، قد خرج بهم الى عبادة الالفاظ والكفر بالمعاني ، فاهم نصروا الالفاظ نصراً مؤزراً ، وجعلوا لها سلطانا اىما سلطان . وخذلوا المعاني اىما خذلان كل ذلك مراعاة لما سموه بديعا ، وان الانسان ليحار من هذا التصرف الشائن ، يتعلقون بذنابى هذا العلم وهم عن الافصاح الساذج قاصرون ، ويريدون ان يمتطوا صهوة هذا الشموس ، وهم عن ركوب الذلول الضعيف عاجزون ..

ولو كنا في صدد تحرير هذا المعنى لأتيناك بالعجاب من الامثلة المضحكة المبكية في هذا الباب ، ولكنا في موقف المؤرخ فما علينا الا ان نطوي هذه الصحيفة ونأخذ بعنان اليراعة مبتهلين اليه تعالى ان يجعل عاقبة امرنا خيراً ..

تاريخ

الخط العربي

تمهيدات

موقع الخط ما قبل التاريخ

للموجودات التي تقع تحت الحس صور كثيرة ترجع في مجموعها الى أربع :

الصورة الأولى عيانية ، والثانية ذهنية ، والثالثة لسانية ، والرابعة خطية . مثال ذلك أنك ترى القلم عياناً . ثم تتخيل صورته في ذهنك ، ثم تضع لفظاً يدل على الصورة الذهنية وهو كلمة « قلم » ، ثم تضع اشارات خطية مخصوصة تدل بها على ذلك اللفظ . فاذا رأيت حروف « قلم » دلتك على اللفظ وهذا اللفظ يدلك على الصورة الذهنية لهذه الأداة وتلك الصورة الذهنية مثال لهذه الأداة المرئية .

والصورتان العيانية والذهنية لا يختلف فيهما بنو الانسان مهما تعددت شعوبهم وقبائلهم . فالعربي مثلا يرى الشيء كما يراه الاعجمي ويتخيله كما يتخيله من غير ما فرق . أما الصورة الثالثة وهي اللسانية فتختلف باختلاف الشعوب ، فيضع العربي مثلا لفظاً للشيء ويضع الأعجمي له لفظاً آخر ، وهذا هو سر اختلاف اللغات ، فالعربي يسمي

هذا الشيء الذي يدفع به العطش « ماءً » والفارسي يسميه « آب » والتركي يسميه « صو » وهذا غير مطرد فقد تشترك عدة شعوب بوضع لفظ واحد فالعربي يسمي أداة الكتابة « قلماً » مثلا وكذلك يفعل التركي والفارسي .

وكذلك تختلف الصورة الرابعة وهي الخطية باختلاف اللغات ، فالعربي يصور اللفظ بصورة تختلف عن الصورة التي يصورها بها الفرنجي فاذا اراد العربي أن يدل على لفظ « كوب » صوّره كما ترى أما الفرنجي فيصوره هكذا « CUB » وهذا غير مطرد ايضا فقد تتفق شعوب كثيرة على استعمال حروف واحدة في تصوير لغاتها كما يفعل العرب والفرس اليوم ، وكما يفعل الانكليز ومن يصاقبهم من شعوب اوربا . وقد يكتب اللفظ العربي بالحرف اللاتيني كما يكتب اللفظ الفرنجي بالحرف العربي . ومنه يفهم أنه لا يلزم من اختلاف الخطوط اختلاف اللغات كما لا يلزم من اختلاف اللغات اختلاف الخطوط . ولا يخفى اننا نريد بالخط هذه النقوش والعلامات المسماة بالحروف الدالة على الألفاظ .

ما قبل التاريخ

أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن يعرف شيئا يصوّر به الألفاظ التي كان يتفاهم بها . وقد كان يتوقف التفاهم بين الانسان والانسان على المواجهة والمشافهة او توسيط من يقوم بذلك . فاذا اراد

انسان أن يتفاهم مع آخر فى بلدة اخرى فاما أن يقصده بنفسه ليواجهه ويشافهه . وأما ان يرسل من يقوم بهذه المهمة نيابة عنه .. وقد اصطلح المؤرخون على تسمية ذلك الطور بطور ما قبل التأريخ .

الخط الصورى

ثم اهتدى الانسان الى طريقة يستغني بها عن المواجهة والمشافهة احيانًا وتتلخص بتصوير الشيء أو الحادثة تصويراً ساذجا . فاذا اراد مثلا أن يخبر صديقه بأن قافلة وصلت المدينة ، يصور له المدينة تصويراً بسيطا وكذلك بعض الحيوانات والبشر الذين تتألف منهم القافلة ، فاذا اراد أن يبين أن القافلة وصلت نهاراً يصور الشمس مطلة على القافلة ، أو ليلا يصور القمر مثلا أو بعض الكواكب وقد اطلق بعض المؤرخين على هذه الطريقة اسم الخط الصوري .

أمهات الخطوط

غبر الانسان على هذه الطريقة حينا من الدهر ثم اخذت تتطور من حال الى حال حتى كثرت المصطلحات وتشعبت المسالك وأخذ كل جماعة من البشر يتواطؤون فيما بينهم على علامات ونقوش يرمزون بها الى مرادهم ويمكن رد تلك المسالك الى اربعة اصول :

١ — المسماري

٢ — الحبشي

٣ — الصيني

٤ — المصري

أما الأصل المسماري فقد جرى عليه البابليون والآشوريون ومن لف لفهم . وقد انقضى عهده منذ أمد بعيد بانقضاء عهد تلك الأمم .

وأما الأصل الحبشي فقد جرى عليه سكان الشام القدماء وقد رأى بعض علماء المشرقيات أن الخط الحبشي والحميري وليد هذا الأصل والجمهور على خلاف ذلك على ما سترى .

وأما الأصل الصينى فقد تفرع عنه الياباني والمغولي وما اليهما ولا تزال آثاره ماثلة فى الصين واليابان وما اليهما .

وأما الأصل المصري فأشهر فروعه الخط الفنيقي ومن هذا تفرع معظم الخطوط المستعملة الآن فى الشرق والغرب وفي جملتها الخط العربي ولهذا رأينا أن نتوسع بعض الشيء فى الكلام على هذا الاصل .

الخط المصرى

كان للقدماء من وادي النيل خط ابتدعوه يستعملونه فى شؤونهم الخاصة والعامة وكان يومئذ أقرب الخطوط العالمية الى السهولة لقلة عدد صوره واختصار رموزه . وقد تشعب مع الزمن الى ثلاثة انواع :

١ — الهيروغليف

٢ — هيراطيق

٣ — دعوطيق

وكان النوع الأول خاصا برجال الدين وخدمة المعابد ، ومحرّما على غيرهم فكانوا يكتبون به تعاليم دياناتهم ومأثور أدعيتهم وما الى ذلك مما يتعلق بعباداتهم ومعابدهم وكبراء عبادهم ورؤساء نحلتهم .

والثاني خاص برجال الدولة وعمالها .

والثالث خط الجمهور من ابناء الشعب يتكاتبون به في شؤونهم الخاصة والعامة فى متاجرهم ومصانعهم ومزارعهم .

ومن الخط المصري تفرّع الخط الفنيقي مع اصلاح كبير أدخله الفنيقيون عليه . وفي الحق ان للفنيقيين الفضل الأعظم في تسهيل هذه الصناعة على بني الانسان فانهم مع احتذائهم المصريين فى تقليل عدد الحروف والانتفاع ببعض اشكالها ـ ابتدعوا طريقة واضحة سهلة كان لها الأثر الحسن فى تسهيل هذه الصناعة على معظم الشعوب المتمدنة في ذلك العهد ولم يزل أثرها ماثلا في الشرق والغرب .

الطريقة الفنيقية

قال بعض المؤرخين : « كان الفنيقيون اكثر الناس اشتغالا بالتجارة ومخالطة للمصريين فتعلموا حروف كتابتهم ، ثم وضعوا لانفسهم حروفا خالية من التعقيد لاستعمالها فى المراسلات التجارية وقد اخذوا من حروف المصريين خمسة عشر حرفا مع تعديل قليل ...

واضافوا اليها باقي الحروف فكونوا كتابة سهلة اشتهرت بواسطتهم في آسية واوربا ووضعوا للحروف اسماء تشبه مسمياتهم الاصلية اشكال الحروف » اه.

ومعنى هذا أنهم لحظوا مخرج كل حرف على حدته ثم عمدوا الى لفظة مبدوءة بذلك الحرف فصوروا معناها أو جزءاً من ذلك المعنى واعتبروا هذه الصورة رمزاً لذلك الحرف . مثال ذلك أنهم بعد أن لحظوا مخرج العين من الحلق عمدوا الى لفظة تبدأ بذلك المخرج وهي لفظة عين فصوروا معناها هكذا (٥) واعتبروا هذه الصورة دالة على ذلك الحرف اينما حل . وكذلك فعلوا في سائر المخارج كما تراه واضحا في الجدول الآتي : (ص ٥٦ من كتاب حفني ناصف)

واختراعهم هذا يعتبر من أجدى الاختراعات التي يعود لها الفضل الأول في خدمة العقل الانساني وانهاض المعارف والعلوم . وهذا من غير شك مفخرة من مفاخر العرب الأولين وقبس من نورهم الذى اضاء السبيل لبني البشر حينا من الدهر ولا يزال يضيء .

فروع الخط الفنيقى

تفرع من هذا الخط معظم الخطوط العالمية المعروفة لهذا العهد وأشهر تلك الفروع :

١ — اليوناني

٢ — العبري

٣ — الآرامي

٤ — المسند

ومن اليوناني ونريد به - اليوناني القديم - تفرعت جميع الخطوط الأوربية المعروفة لهذا العهد وكذلك تفرع منه الخط القبطي .

ومن العبري القديم تفرع الخط السامري (١)

ومن الآرامي تفرعت الخطوط الهندية والخط الفهلوي (٢) والعبري المربع والتدمري والسرياني والنبطي .

أما المسند فقد تفرع عنه الخط الحبشي والخطوط العربية المعروفة لهذا العهد على ما ذهب اليه مؤرخوا العرب . قالوا : إن ثلاثة من قبيله (٣) طيء كانوا يسكنون الانبار ابتدعوا خطاً اسموه بذلك لانهم اقتطعوه من المسند والجزم هو القطع .

---

(١) نسبة الى سامرة نابلس .

(٢) الفارسية القديمة نسبة الى (فهلا) وهي البقعة التي فيها همذان واصفهان واذربيجان والري وماه لاوند .

(٣) هم مرامر بن مرة واسلم بن سدره وعامر بن جدره .

تعريف ببعض الاعلام

الهامة الواردة فى الكتاب

الخليل بن أحمد

اذا افتخرت الأمم بالأفذاذ من رجالها الذين رفعوا مشعل العلم عالياً فأناروا للعقول مناهجها، وضاعفوا لذاتها ومباهجها، حق للعرب أن يكونوا المجلين فى هذه الحلبة ولهم من تاريخ المعارف الانسانية شواهد خوالد تسطع انوارها، وتتجدد على الزمن آثارها فتأريخ النتاج العقلي يفيض بما للعقل العربي من خصب فى الانتاج، وبراعة فى الاختراع، ودقة في الابداع، وسعة في التحقيق، وانعام فى التدقيق مع صدق في القول، وامانة متناهية فى النقل.

ومن بين اولئك الافذاذ الذين أقاموا للعلم مناره ورفعوا لواءه في سماء الرافدين الخليل بن احمد البصري.

نسب الخليل

من أشهر قبائل اليمن قبيلة الأزد التي منها غسان، والأوس والخزرج اللتان عرفتا بعد الاسلام بالأنصار. ومن بطون هذه القبيلة الفراهيد، وكان الكثير من افخاذها يقطن عمان والبصرة. وقد أنجبت عدداً كبيراً من المشاهير كان فى الطليعة منهم المترجم وهو: أبو عبد الرحمن الخليل بن احمد بن عمر بن تميم البصري الفراهيدي اليحمدي وبعضهم يقول الفرهودي. قال الأصمعي: سألت الخليل بن أحمد ممن

هو؟ فقال : من أد عمان من فراهيد. قلت وما فراهيد؟ قال : جرو الأسد بلغة عمان. اه

مولده ونشأته

ولد الخليل فى البصرة حوالي سنة ١٠٠ ه ونشأ بها، وترعرع فيها وهي يومئذ مهد العربية ومطلع اقمارها، وينبوع فياض بالمعارف ولا سيما الأدبية منها، فشب بين مربدها الذي اصبح عكاظ العرب بعد الاسلام، وحلقات ادبائها الذين كانوا مصابيح الدّجى ونجوم الهدى، فاقتطف من ازاهير المعارف ما شاء أن يقتطف، واجتنى من يانع ثمارها ما راق منظره وطاب مخبره، وبرز على اقرانه ايما تبريز، ومن أشهر مشايخه فى الادب أبو عمرو بن العلاء. ولما آنس من نفسه الكفاية رأى أن أخذ العربية عن الحضريين من العلماء والمترددين الى الحواضر من الأعراب الذين لانت سلائقهم وضعفت طباعهم لا يوصل الى اليقين ولا يهدي الى مهيع الصواب، وعلم أن التبحر في هذا الشأن لا يتيسر إلا بمشافهة الأعراب الخلص الذين توقحت سلائقهم، وصفت عربيتهم، ومعايشتهم فى ديارهم، فشد الرحال، وضرب فى كبد الجزيرة، وطفق يفلي ناصية الفلاة ويتنقل في الاحياء التي حلت في سرة البادية، ولم يكدر صفاء لغتها مخالطة حمراء الأمم وصفرائها كقيس وتميم وأسد وغيرهم ممن خلصت عربيتهم، فكان يلتقط ما يعثر عليه من

درر كلامهم وفرائد خطبهم ونوادر اخبارهم ، وعيون اشعارهم ، وجليل آثارهم ، فما عاد الى وكره حتى وعى فى حافظته ادبا غضا وعلما جما ، كما اوقر راحلته رقاقا وطروسا ومهارق حشد فيها شوارد النثر وفرائد النظم فكانت تلك المنقولات عدته فى استخراج المسائل وبناء القواعد ، وتبويب اللغة ، وتصحيح القياس والاكثار من الشواهد والتوسع فى ابداء البراهين .

عفر

كان الخليل آية من الآيات فى الذكاء ودقة التصور ، وتوقد الفطنة وصدق الحدس ، وسعة الحافظة ، وقوة الذاكرة ، ورجاحة العقل ، حتى كانوا يقولون : « لا يجوز على الصراط أحد بعد الانبياء ادق ذهنا من الخليل » ولا حاجة بنا الى برهان انصح من هذه المبتكرات التي اخرجها للناس كما سيمر بك بعد . وقد نقل اهل العلم عنه حكايات فى هذا الشأن تتجاوز حد التصديق لولا ثقة رواتها وتكاثر نقلتها . من ذلك انه جاءته رسالة عربية مكتوبة بالحرف السرياني فقرأها وهو لا يعرف شيئا عن الحرف السرياني ، ولكنه استعان بما عرف انها تصدر عادة بالبسملة والحمدلة ونحوها .

قال الرواة: اجتمع الخليل وعبدالله بن المقفع ليلة يتحدثان الى الغداة فلما تفرقا قيل للخليل : كيف رأيت ابن المقفع ؟ فقال رأيت رجلا علمه اكثر من عقله وقيل لابن المقفع : كيف رأيت الخليل ؟.. فقال : رأيت

رجلا عقله اكثر من علمه . وقال حمزة بن حسن الأصفهاني :

« إن دولة الاسلام لم تخرج أبدع للعلوم التي لم يكن لها عند علماء العرب اصول من الخليل . وليس على ذلك برهان اوضح من علم العروض ، لا عن حكيم أخذه ولا على مثال تقدمه احتذاه . فلو كانت ايامه قديمة ، ورسومه بعيدة لشك فيه بعض الأمم لصنعته ما لم يصنعه أحد منذ خلق الله الدنيا من اختراعه العلم الذي قدمت ذكره ، ومن تأسيس بناء كتاب العين الذي يحصر لغة امة من الأمم قاطبة ، ثم من امداده شيبويه من علم النحو بما صنف منه كتابه الذي هو زينة لدولة الاسلام . »

مبتكراته

لقد ابدع الخليل بدائع لم يسبق اليها واخترع علوما اعجزت المتقدمين كما بهرت المتأخرين ، فلا عجب اذا سميناه « شيخ المبتكرين من العرب » .

(علم العروض) : لو لم يكن للخليل من المبدعات إلا هذا العلم لكفاه منقبة ، فانه - لعمري - ابدع فى تنسيق قواعده وضبط ابوابه ، كما بهر الالباب باختراعه . فقد حصر اقسامه فى خمس دوائر يستخرج منها خمسة عشر بحراً على كيفية ادهشت الفطن ، وحيرت الأفئدة . ونحن نعلم أن كل مبتكر يعتريه في بادىء الأمر الاضطراب ، ويحف

بالنواقص ، فلا تستقيم قناته ، ويلبس الحلة التي تليق به الا بعد أن تختلف العقول على صقله وتثقيف أوده حينا من الدهر ، سنة الله في خلقه . ولكنا رأينا علم الخليل بلغ الرشد يوم ولادته فلم يستدرك عليه من جاء بعده بابا اهمله ، أو قاعدة أخل بها ، او فصلا ذهل عنه ، او اصطلاحا غيره خير منه ـ إلا ما كان من امر البحر الذي زاده تلميذه الاخفش وسماه « الخبب » ولا يعسر رد هذا البحر الى واحد من بحور الخليل .

(الشكل) : كان الخط فى صدر الاسلام خلواً من الشكل والاعجام ، فوضع ابو الاسود الدؤلي المتوفي سنة ٦٩ هـ علامات للحركات الثلاث ، فجعل علامة الفتحة نقطة فوق الحرف ، والكسرة تحته ، والضمة بين يديه ، وجعل التنوين نقطتين ، كل ذلك بمداد يخالف مداد الحرف . فلما وضع نصر بن عاصم ويحيي بن يعمر بأمر من الحجاج نقط الاعجام اضطرب الامر واشتبه الاعجام بالشكل فتصدى الخليل لازالة هذا اللبس فوضع الشكل على الطريقة المعروفة اليوم ، وبني ذلك على مقاييس مضبوطة ، وعلل دقيقة ، بأن جعل للفتحة ألفا صغيرة مضطجعة فوق الحرف ، وللكسرة رأس ياء صغيرة تحته ، وللضمة واواً صغيرة فوقه ، فاذا كان الحرف المحرك منونا كرر الحرف الصغير فكتب مرتين فوق الحرف أو تحته ذلك لأن الفتحة

جزء من الالف ، والكسرة جزء من الياء والضمة جزء من الواو ، ووضع للتشديد رأس شين بغير نقط « ّ » ، ووضع للسكون دائرة صغيرة وهي الصفر من الارقام العربية القديمة ، وذلك لأن الحرف الساكن خلو من الحركة ، ووضع للهمزة رأس عين « ء » لقرب الهمزة من العين في المخرج . هكذا قالوا . والذي أراه أن هذه الشكلة انما هي الميم المتوسطة في لفظ « همزة » لأنك اذا كتبت هذا اللفظ وحذفت الهاء من اوله والزاي والتاء من آخره ظهرت هذه الشكلة واضحة . ووضع لألف الوصل رأس صاد هكذا « ص » ، توضع فوق ألف الوصل مهما كانت الحركة فيها ، وللمد الواجب ميما صغيرة مع جزء من الدال هكذا « ~ » فكان مجموع ما تم له وضعه ثماني علامات : الفتحة والكسرة والضمة والسكون والشدة والهمزة والصلة والمدة ، كلها حروف صغيرة او ابعاض حروف بينها وبين ما دلت عليه أجلى مناسبة واوضح صلة ، بخلاف علامات ابى الاسود واتباعه فانها مجرد اصطلاح لم يبن على مناسبة بين الدال والمدلول . وألف الخليل فى هذا الموضوع كتابا نفيسا فلم يزد أحد على طريقته هذه شيئا ولا اصلح منها رأيا فكأنه ابتدأها وبه ختمت .

(الموسيقا) : لم يكن الخليل يعرف لغة اجنبية وليس فيه ميل الى اللهو والقصف ولكننا رأيناه ألف كتابا في الموسيقا جمع فيه اصناف النغم وحصر انواع اللحون ، وحدد ذلك كله ولخصه وذكر مبالغ

اقسامه ونهايات اعداده فصار الكتاب آية في بابه. ولما وضع اسحق ابن ابراهيم الموصلي كتابه فى النغم واللحون عرضه على ابراهيم بن المهدي فقال له: احسنت!... فقال اسحق: بل احسن الخليل لأنه جعل السبيل الى الأحسان فقال بعض اهل العلم: ان مهارة الخليل في علم الالحان هي التي اعانته على ابداع علم العروض.

كتاب سيبويه من وحي الخليل

الخليل أول من فتق معاني النحو وضبط اصوله، وبسط فروعه، واستخرج علله واسبابه، ووسع فصوله وابوابه، واوضح سبيله، وعبد مناهجه حتى بلغ اقصى غاياته، ولكنه ترفع عن التأليف فيه لأنه منهل كثر وراده فأوحى الى تلميذه وخريجه «سيبويه» من دقائق مسائله وبنات افكاره وابكار تصوراته ما جعله حريا بأن يشار اليه بالبنان، وجديراً بوضع كتابه المشهور الذي اصبح للنحاة اماما يقتدون به ويهتدون بهديه، فمعظم ما فى الكتاب مغترف من سلسال علم الخليل، ومقتبس من مصباح ذكائه. وكلما قال سيبويه: «سألته» أو «قال» من غير أن يذكر احداً فانه يعني «الخليل».

كتاب العين أو «أبو المعاجم كلها»

علمنا ان الخليل قد طالت صحبته لخلص الأعراب وكثرت اقامته بين ظهرانيهم، ثم انه كان يحج بين العام والعام، وكان يقابل فى طريقه

الى مكة فصحاء العرب واقطاب بلغائهم فاجتمع لديه كثير من مفردات اللغة وفرائد دررها ، فعزم على جمع ذلك فى كتاب لم يسبق الى مثله ، فرسم الخطة ورتب الابواب على طريقة ابتدعها ، واسلوب لم يسبق اليه ، وكان قد افتتحه بحرف العين فسماه « كتاب العين » على عادة الكتاب في ذلك العصر ، فانهم يسمون الكتاب بأول ابوابه ككتاب الجيم وكتاب الميم وكتاب الغين وكتاب الحماسة وغيرها . وهذا الكتاب اول كتاب ألف في متن اللغة مرتبا على الحروف جمع فيه الخليل ١٢٣٠٥٤١٢ كلمة بعضها مستعمل واكثرها مهمل . والذي حدا به لذكر المهمل استيفاء التقاسيم العقلية لكل كلمة ، فمثلا كلمة « كتب » يحتمل فى الكاف الفتح والضم والكسر ويحتمل فى التاء الحركات الثلاث والسكون وثلاث في اربع اثنتاعشرة صورة فيذكر الاثنتي عشرة صورة ويقول هذه الصورة مستعملة لمعنى كذا ، وهذه الصورة لم تستعملها العرب ، وقد جمع الخليل في كتابه هذا من غرر الشواهد ، ونوادر الفوائد ، وضروب الحصر ، ورصين القواعد ، وجليل المسائل ما يعز وجوده فى معجم غيره . على أنه تضاربت آراء العلماء فى نسبة هذا الكتاب الى الخليل او الى بعض تلاميذه او الى الليث . وقد ألف ابن درستويه كتابا خاصا فى شرح هذا الخلاف واستقصى الجلال السيوطي في المزهر جميع ما دار فى هذا الموضوع من اقوال . ولكن

نحن لا نرتاب في أن الخليل هو الذي رسم خطط هذا الكتاب ورتب ابوابه ووضع حجر الزاوية بيده ، اما أن غيره اكمله وزاد فيه فذلك أمر محتمل ، ولكنه لا يدفع الخليل عن كونه المجلي في هذه الحلبة وأنه اول واضع لمعاجم اللغة مرتبة على حروف المعجم ، وأن من جاء من بعده انما اقتبس من مصباحه واهتدى بمناره . ولم يزل جمهور الادباء وارباب البحث لهذا العهد يظنون أن هذا المعجم الجليل اغتالته ايدي الايام فيما اغتالت من نفائس الاسفار ، وجليل الآثار ، ولكن من يمن الطالع أن عثر على نسخ منه أحد ادباء الحاضرة الهاشمية ، فسعى البحاثة المشهور صاحب (لغة العرب) بمقابلة تلك النسخ وتصحيحها باذلا الجهد في تحري الصواب على عادته ، ثم شرع في طبعه ولكن بعد أن أنجز منه بضع كراريس حالت الحال ، وعرضت دون ذلك اهوال . ولا ندري هل بقي لتلك النسخ من أثر بعد ان تفرقت كتب الرجل ايدي سبأ ومزقت كل ممزق ؟ .. جرى كل ذلك قبل نحو بضع وعشرين سنة .

وقد سلك الخليل في ترتيب حروف الهجاء مسلكا لم يسبق اليه ، ذلك أنه رتبها حسب المخارج مع تغيير طفيف فجاءت على هذا الوجه :

ع ح هـ خ غ ق ك ج ش ض ص س ز ط د ت ظ ذ ث ر ل ن ف ب م و أ ي .

قال الخليل : لم ابدأ بالهمزة لأنه يلحقها النقص والتغيير والحذف ، ولا بالألف لانها لا تكون في ابتداء كلمة ، ولا في اسم ولا فعل إلا زائدة أو مبدلة ، ولا بالهاء لانها مهموسة خفية لا صوت لها فنزلت الى الحيز الثاني وفيه العين والحاء فوجدت انصع الحرفين فابتدأت بها ليكون احسن في التأليف . ا هـ

هل كان الخليل يقرض الشعر

قالوا : كان ينظم البيتين والثلاثة كما سيأتي : وروى الاثبات انه سئل لماذا لا تقرض الشعر مع سعة علمك بالعربية وتبحرك في علومها؟. قال : « يأباني جيده وآبى رديئه » وهذا الجواب على ايجازه غاية في البلاغة وآية في الحكمة وحصافة الرأي .

مؤلفاته

للخليل مؤلفات ابدع فيها ايما ابداع ولم يحتذ في تأليفها وتبويبها حذو من سبقه من اهل العلم . والذي يجيل النظر في سيرة هذا الرجل يتبين له أنه كان يربأ عن سلوك المناهج المعبدة في كل ما يكتب ويصنف ، ولذلك كان يسلك في التأليف طرقا خاصة يؤم فيها الناس ولا يأتم بأحد فمن تصانيفه :

١ — كتاب العين . وقد مر بك بعض اوصافه .

٢ — فائت العين .

٣ — كتاب الايقاع . وهو في الموسيقا العربية ويظهر من مراجعة فهارس المؤلفات فى هذا الباب ان الخليل يعتبر مجلي الحلبة في هذا المضمار .

٤ — كتاب النغم . وهو في الموسيقا العربية .

٥ — كتاب الجمل .

٦ — كتاب الشواهد .

٧ — كتاب العروض .

٨ — النقط والشكل وقد أشرنا اليه آنفا . وذكر الفاضل جورجي زيدان في كتابه تاريخ آداب اللغة العربية ما نصه : « فى المكاتب الكبرى في اوربا مما ينسب الى الخليل :

١ — كتاب فى معنى الحروف فى مكتبة ليدن ومكتبة برلين .

٢ — كتاب شرح حروف الخليل فى مكتبة برلين قطعة منه .

٣ — كتاب جملة آلات العرب في مكتبه أيا صوفيا في الاستانة .

٤ — قطعة من كلام عن اصل العقل في مكتبة اكسفورد (بودليان) ... »

زهده وورعه

كان الخليل من اولئك الفلاسفة الذين نظروا الى هذا العالم نظرة الازدراء ، ولم تخدعهم بهرجته ، ولا غرتهم زخارفه . أجل كان الخليل

أحد زهاد الدنيا المتبتلين الى الله تبتيلا . ومن انصع البراهين على ذلك أن امير الاهواز « سليمان بن علي » ارسل اليه يلتمس منه الشخوص ليقيم بحضرته ويؤدب اولاده فأخرج الخليل للرسول خبزاً يابسا وقال ، كل فما عندي غيره . وما دمت أجده فلا حاجة بي الى سليمان . فقال الرسول : فماذا أبلغه ؟ فقال له :

أبلغ سليمان اني عنه في سعة — وفي غني غير اني لست ذا مال
شحا بنفسي أني لا ارى أحداً — يموت هزلا ولا يبقى على حال
والفقر في النفس لا في المال نعرفه — ومثل ذاك الغني في النفس لا المال

وكان سفيان بن عيينه يقول : من أحب أن ينظر الى رجل من الذهب والمسك فلينظر الى الخليل . وقال تلميذه النضر بن شميل : اقام الخليل فى خص بالبصرة لا يقدر على فلسين وتلامذته يكسبون بعلمه الاموال الطائلة .

ومن اوابد حكمه :

وقبلك داوى المريض الطبيب — فعاش المريض ومات الطبيب
فكن مستعداً لدار الفنا — ء فان الذي هو آت قريب

وبالجملة فقد كان الخليل احد حسنات هذه الامة وقمراً من اقمارها ، ودرة في تاج مفاخرها .

وفاته

اختلف المؤرخون في السنة التي انتقل فيها الخليل الى جوار ربه ،

فذهب جمهورهم الى انه توفى سنة ١٧٠ ﻫ . وقال آخرون سنة ١٧٥ ﻫ وقال بعضهم سنة ١٦٠ ﻫ واغرب خطأ وقع في ذلك هو قول ابن الجوزي في كتابه شذور العقود أنه مات سنة ١٣٠ ﻫ وهو منقول عن الواقدي . قال المحقق ابن خلكان : انه خطأ قطعا والصواب ما اثبتناه اولاً .

وكانت وفاته في البصرة مسقط رأسه فكانت البصرة مشرق هذا الكوكب الوقاد ومغربه ، وقد ضمته تربتها الى من ضمت من اعلام العلم واقمار الفضل ونجوم الهدى ورجال التقى الذين حلوا الآداب بأنفس الحلى ، ونهضوا بالمعارف الانسانية الى مراتب العلا ، فكانوا للعلم جمالا ، وللتاريخ ابهة وجلالا ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ولقاهم في دار رضوانه تحية وسلاما .

ابن الأنبارى

هو ابو بكر محمد بن القاسم من اهل الانبار ، كان ابوه محمد الانباري من اهل الاخبار والنحو فتلقي العلم عنه وعن ثعلب ، وكان مضرب المثل بسرعة الخاطر ، وقوة الذاكرة ، وكان يملي علمه من حفظه في ناحية من المسجد في بغداد ، ويقول ابو علي القالي عنه انه كان يحفظ ثلثمائة الف شاهد في القرآن الكريم ، وقيل له قد اكثر الناس في محفوظاتك ، فكم تحفظ ؟ فقال احفظ ثلاثة عشر صندوقا ، وقيل انه كان يحفظ مائة وعشرين تفسيراً للقرآن بأسانيدها . وكان لسعة علمه يطيل التأليف اذا كتب ، قالوا إنه كتب كتابه غريب الحديث في ٤٥٠٠٠ ورقة وشرح الكافي في ١٠٠٠ ورقة .

وقد الف في النحو واللغة والأدب والقرآن والحديث ، وتوفى سنة ٣٢٧ ، وقيل ٣٢٨ ه . وله كتب كثيرة ومما وصلنا منها : كتاب الاضداد في النحو ، و كتاب الزاهر في معاني كلمات .

الناس ، وشرح المفضليات ، و كتاب الايضاح في الوقف والابتداء وكتاب الهاءات في كتاب الله .

ويعرف بابن الانباري ايضا « ابو البركات » عبد الرحمن بن محمد الانباري ، الملقب بكمال الدين النحوى ، وكان من الأئمة المشار اليهم

فى علم النحو ، سكن بغداد من صباه وبقى بها الى ان توفى سنة ٥٥٧ ﻫ قرأ النحو بالمدرسة النظامية ، ثم صار مدرساً بها ، وصنف كتاب اسرار العربية فى النحو ، وكتاب الميزان فيه ايضاً وكتاب طبقات الادباء ، وانقطع فى آخر عمره للعبادة والعلم ، وترك الدنيا واهلها ومجالسها ، وبقى حميد السيرة حتى توفى ، وكانت ولادته عام ٥١٣ ﻫ

ابن جنّى

هو ابو الفتح عثمان بن جنى ، ولد في الموصل حوالي عام ٣٠٠ ﻫ ، كان ابوه مملوكاً رومياً لسليمان بن فهد الأزدي ، تنقل بين حلب وفارس وعاش فى بلاط سيف الدولة حينا ، وفى بلاط عضد الدولة حينا ، درس على ابي علي الفارسي البصري وصحبه نحواً من اربعين عاما ، وبقى معه حتى توفى ، تعرّف على ابى الطيب المتنبي وعاش معه حينا في بلاط سيف الدولة ، وتوثقت الصلة بينهما ، وقد شرح ديوان المتنبي شرحا استفاد منه كل شراح الديوان بعده ، لأنه ـ لعشرته للمتنبي ـ عرف الظروف والمناسبات التي احاطت شعره ، وكان ابو الطيب المتنبي يجله ويقول : « هذا رجل لا يعرف قدره كثير من الناس » ولابن جني اطلاع واسع في العربية ، فمن كتبه سر الصناعة واسرار البلاغة فى الحركات واحرف العربية ، وله كتاب « الخصائص في علم اصول العربية » على ان ابن جنى قد شهر بالنحو واتخذ له منهجا وسطا بين مدرسة

الكوفة ومدرسة البصرة ، وكان ماهراً فى التصريف ، ماهراً فى التعليل والقياس ، ويقول عنه الباخرزي في دمية القصر « ليس لأحد من أئمة الأدب فى فتح المقفلات وشرح المشكلات ماله ، ولا سيما في علم الاعراب » .

وله شعر ، على انه شعر العلماء ، لا شعر الشعراء المطبوعين ، من هذا ، قوله فى اصلة الرومي :

فان اصبح بلا نسب ... فعلمي في الورى نسبي
على انى اؤول الى ... قروم سادة نجب
قياصرة اذا نطقوا ... ارمّ (١) الدهر ذو الخطب

ابن خالويه

هو أبو عبدالله الحسين بن احمد بن خالويه ، همداني الاصل دخل بغداد عام ٣١٤ هـ ، درس النحو والادب على ابن دريد وابن الانباري ونفطويه وابي عمر الزاهد ، ودرس الحديث على محمد بن مخلد العطار ، وانتقل الى الشام ، ثم اقام بحلب واتخذها وطناً له ، وتقرب من آل حمدان ، وقد شهر بالنحو واتخذ له مذهبا وسطا بين مدرستي الكوفة والبصرة النحويتين ، وكان ذائع الصيت فى التدريس ، وقد حظى عند سيف الدولة الحمداني حتى اتخذه مؤدبا لأولاده ، وكان يقرض الشعر وله

---

(١) ارم : سكت

مناظرات مع ابى الطيب المتنبي ، أنشد المتنبي قصيدته التي مطلعها :

وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمه   بأن تسعدا ، والدمع اشفاه ساجمه

وهي اول قصيدة انشدها المتنبي لسيف الدولة ، وكان ابن خالويه حاضراً في مجلس سيف الدولة فقال للمتنبي ، تقول : أشجاه وهو شجاه فقال له المتنبي : « اسكت ، ليس هذا من علمك ، انما هو اسم لا فعل » وللنحاة جدل طويل حول بيت ابى الطيب هذا . وابن خالويه ظن ان المتنبي يعني بأشجاه : من شجاه يشجوه شجواً ، وان الهاء في « أشجاه » مفعول به ، وابو الطيب عنى به أفعل التفضيل ، ويكون الهاء مضافا اليه .

وتوفي ابن خالويه عام ٣٧٠ هـ ، ومن كتبه « كتاب ليس » و « رسالة فى اعراب ثلاثين سورة من الكتاب العزيز » و « شرح مقصورة ابن دريد » وينسب اليه « كتاب الشجر » و « كتاب العشرات »

ابن دريد

هو ابو بكر محمد بن الحسن بن دريد الازدي ، ولد فى البصرة عام ٢٢٣هـ ودرس على ابي حاتم السجستاني والرياشي والاشناندانى ، وغيرهم ، وحدثت مذبحة الزنج في البصرة ففر مع عمه الذي كان يقوم بتربيته - الى عمان واقام فيها اثني عشر عاما ، ثم توجه الى جهات فارس واقام عند بني ميكال ، وهم يومئذ عملة فارس ، وكتب لهم كتابه « الجمهرة فى

علم اللغة » وهو كتاب غريب اتبع في ترتيبه ترتيب الخليل في كتابه العين ، بدأ بالثنائي ، ثم الثلاثي فالرباعي ، فملحق الرباعي فالخماسي والسداسي وملحقاتهما ، وجمع الالفاظ النادرة في باب مفرد ، ورتب كل طائفة من تلك الالفاظ على ابجدية الخليل ، وطريقة التفتيش فيه غير مألوفة عندنا ، فأنه يأتي في باب الثلاثي مثلا في فصل العين بالاحرف الثلاثة التي اولها عين ، مثل « ع ل ن » ويأتي بمعانيها على اختلاف وضع احرفها فيقول : « عان الامر يعلنه علنا .. واللعن : اصله الابعاد .. والنعل : معروف ونعل الفرس : ما اصاب الارض من حافره » وقد سماه الجمهرة لأنه اختار فيه جمهور كلام العرب .

وكما كتب الجمهرة لآل ميكال كتب في مدحهم مقصورته المشهورة التي اكثر الناس معارضتها وشرحها ، وهي قصيدة طويلة يبلغ عدد ابياتها ٢٢٩ بيتا ، وقد جمعت الكثير من اخبار العرب وحكمهم وامثالهم

وعزل آل ميكال عام ٣٠٨ﻫ وانتقلوا الى خراسان فارتحل ابن دريد الى بغداد ، فأجرى الخليفة المقتدر عليه خمسين ديناراً في الشهر ، وعمر ابن دريد طويلا واصابه فالج فى التسعين من عمره ، وتوفي عام ٣٢١ﻫ ودفن فى المقبرة المعروفة بالعباسية في بغداد .

ويعد ابن دريد اكبر علماء عصره فى اللغة واقدرهم على نقد الشعر ، ونظمه ، وكان يقال له : « اعلم الشعراء واشعر العلماء » . وله من الكتب

كتاب السرج واللجام ، وكتاب الخيل الكبير ، وكتاب الخيل الصغير وكتاب السلاح ، وكتاب الانواء وكتاب الملاحن .

ابن السراج

هو ابو بكر محمد بن السري بن سهل النحوي ، اخذ الأدب عن ابى العباس المبرد ، وكان المبرد يقرّبه فقرأ عليه كتاب سيبويه واخذ عنه جماعة من العلماء منهم ابو سعيد السيرافي ، وعلي بن عيسى الرمانى وغيرهما ، ونقل عنه الجوهري في كتابه الصحاح في مواضع عديدة . درس الموسيقى . ودرس النحو وعول على مسائل الأخفش والكوفيين ، وخالف اصول البصريين في مسائل كثيرة ، ولم تطل ايامه ، ومات شابا سنة ٣١٦ هـ وله من الكتب : الأصول الكبير وجمل الاصول والموجز وشرح سيبويه ، والاشتقاق ، والشعر والشعراء ، والجمل والخط والهجاء ، والرياح والهوى والنار ، ولابن السراج ابيات من الشعر منها قوله :

حلفت لنا ان لا تخون عهودنا فكأنما حلفت لنا ان لا تفي
والله لا كلمتها ولو انها كالبدر او كالشمس او كالمكتفي

ويقولون إن المكتفي اثاب عبيد الله بن طاهر على هذه الأبيات ظنا منه انها له لا لابن السراج . والسراج : نسبة الى عمل السروج .

ابن سيده

هو الحافظ ابو الحسن علي ابن اسمعيل ، وقيل ابن محمد المرسي

الأندلسي ، كان ابوه ضريراً يعلم اللغة ، وكان هو ضريراً كأبيه ، وقد اخذ العلم عنه وعن صاعد بن الحسن البغدادي ، وكان اعلم اهل زمانه بالنحو واللغة والأشعار وايام العرب وما يتعلق بها ، اقام في مرسية وتوفى في دانية من اعمال الأندلس عام ٤٥٨ ﻫ وله من العمر ستون سنة .

وهو آخر اصحاب المعاجم التي ظهرت في عصره واعظمهم ، له كتب كثيرة منها شرح الحماسة ، وشرح كتاب الأخفش، وله كتاب « المحكم في اللغة » وهو كتاب كبير رتب الفاظه على ترتيب كتاب العين ، ويمتاز بالضبط وقد اختار شواهده من اوثق المصادر الشعرية وغيرها ، وعليه عول صاحب القاموس في تأليف كتابه ، والكتاب مخطوط في المتحف البريطاني ، وفي دار الكتب المصرية .

وله « المخصص » وهو مطبوع متداول ، ومواده مرتبة على معانيها لا على حروفها ، وهو اوفى كتاب في بابه ، قد اجتمعت فيه الألفاظ المتشابهة والمتقاربة في معانيها ، او المتفرعة بعضها عن بعض في باب واحد .

وله كتاب « شرح مشكل المتنبي » مخطوط بدار الكتب المصرية

ابن قتيبة

هو ابو عبد الله محمد بن مسلم ، ولد بالكوفة سنة ٢١٣ ﻫ وتثقف

على اهلها ، وسكن بغداد ، ثم ولي القضاء في « دينور » فنسب اليها ، واشتغل بالتدريس في بغداد وتوفي بها عام ٢٧٦ هـ . كان راوية صادقا فيما يرويه، وكان حر الرأي جريئا في احكامه ، عالما باللغة والشرع . ويعتبر في النحو امام مدرسة بغداد النحوية ، التي خلطت مذهب مدرسة البصرة بمذهب مدرسة الكوفة ،واشترك في مناقشة عصر الكلامية، ومع انه دافع عن القرآن والحديث ضد نزعة الشك الفلسفي ، وحمل على رجالها ، الا انه اتهم مع ذلك بالزندقة ، ويقولون انه الف كتابا في الرد على المشبهة ليدرأ عن نفسه تهمة الانتساب اليهم ، واهم تصانيفه الادبيه كتابه « ادب الكاتب » ومن مصنفاته « غريب الحديث » وله :« عيون الاخبار » و كتاب المعارف، و كتاب « الامامة والسياسة » و كتاب « مشكل القرآن »و«المشتبه من الحديث والقرآن و« تأويل مختلف الحديث » .

ومما يذكر عن ابن قتيبة انه عاصر الجاحظ ، وكان يكرهه ، وقد ذكر في كتابه « تأويل مختلف الحديث » بأن الجاحظ يذكر حجج النصارى في الرد على المسلمين بأقوى مما يذكر الرد عليهم ، وأنه يستهزيء بالحديث كذكره كبد الحوت ،وقرن الشيطان ، وذكر الحجر الأسود، وانه كان ابيض فسوده المشركون ، وقد كان يجب ان يبيضه المسلمون حين اسلموا ، وانه كذاب

يضع الحديث وينصر الباطل ، وانه ملأ كتبه بالمضاحيك والعبث يريد بذلك استمالة الاحداث وشراب النبيذ . وربما كان سبب الخصومة بينهما ان الجاحظ معتزلي متكلم ، وابن قتيبة من اهل السنة ، والنزاع بين الطائفتين شديد عنيف .

ابن النحاس

هو بهاء الدين محمد بن ابراهيم بن محمد ، ولد بحلب سنة ٦٢٧ هـ وهاجر الى مصر عندما خربت حلب ، بعد ان سمع من ابن المثنى ، والموفق بن يعيش وغيرهم ، وجلس للافادة في مصر وتخرج به جماعة من الأئمة الفضلاء ، كان ذكيا ذا خبرة بالمنطق ، فيه ظرف النحاة وانبساطهم وكان حسن الاخلاق له صورة كبيرة فى صدور الناس حتى كان بعض القضاة اذا انفرد بشهادة حكمه فيها وثوقا بدينه ، وكان معروفا بحل المشكلات والمعضلات . وقد درس بالمنصورية ، وولى تدريس التفسير بالجامع الطولوني ، ولم يصنف شيئا الا ما املاه شرحا لكتاب المقرب. وكان ابو حيان من تلاميذه . توفى سنة ٦٩٨ هـ

ابو حيان

هو اثير الدين محمد بن يوسف الغرناطي ، بربري الأصل ولد في غرناطة عام ٦٥٤ هـ ودرس النحو والحديث فيها ، وتنقل في شمال افريقية ومصر . واتجه الى الحجاز وادى فريضة الحج ثم عاد الى القاهرة واخذ

يدرس الحديث في المدرسة المنصورية فيها .

كان ظاهري المذهب ، حتى لقد قال عنه ابن حجر « انه كان ظاهريا حتى فى النحو » وربما كان قصده من قوله هذا انه كان شديد التمسك بآراء النحويين الاوائل كسيبويه مثلا .

وقد شهر ابو حيان هذا بالنحو على انه كانت له مصنفات في علوم القرآن والحديث ، ويقولون انه كتب كتابا في تاريخ الاندلس يقع في ستين مجلداً .

كان ابو حيان اعجوبة زمانه فى كثرة التأليف حتى قالوا ان مؤلفاته قد بلغت الخمسة والستين عدداً ، على ان الذي وصلنا منها لا يزيد على العشرة ، وكان اعجوبة زمانه في سرعة تعلم اللغات ، فهو بربري الاصل كما مر ، اتقن العربية وبرز في نحوها ، واتقن الفارسية وصنف كتابا فى نحوها ، واتقن الكردية وصنف كتابا في نحوها : وكتابه هذا كان ذا فائدة جليلة طبع بالقسطنطينية واسمه « الادراك فى لسان الاتراك » وتعلم الحبشية وكتب رسالة - لم يتمها - فيها . وتوفى بالقاهرة عام ٧٤٥هـ.

ابو الاسود الدؤلى

هو ظالم بن عمرو منسوب الى دئل وهي بطن من كنانة ، قال الجاحظ « ابو الاسود معدود فى طبقات من الناس ، وهو فى كلها مقدم ، مأثور عنه الفضل في جميعها ، كان معدوداً في التابعين والفقهاء

والشعراء والمحدثين والاشراف والفرسان والامراء والدهاة والنحويين والشيعة والبخلاء .» كان ابو الاسود ثقة في حديثه روى عن عمر وعلى وابن عباس وابي ذر وغيرهم ، على انه كان اكثر الناس تعلقا بعلي وعنه اخذ علم النحو كما مر بك ، وقد ولى قضاء البصرة ، وقد ادرك اول الاسلام وشهد بدراً ، وتوفى بالطاعون عام ٦٩ هـ وله من العمر ٨٥ سنة

ولأبي الاسود شعر اكثره في الحكمة والادب ، ويرى بعض الكتاب المحدثين ان الكثير من هذه الاخبار التي اسندت لأبي الاسود قد وضعت عليه ، حتى يقول المستشرق ركندورف Reckendorf في مقالة عنه في دائرة المعارف الاسلامية « وليس حقا ما يقال عنه إنه واضع اصول النحو العربي ـ اما القصص التي تروى عنه فليست مما يعلى من قدره ، ولكن يؤخذ من اشعاره ، ان بعض هذه القصص ، على الاقل قد احكم تلفيقه » .

ابو على الفارسى

هو الحسن بن احمد بن عبد الغفار ، ابو علي الفارسي ، واحد زمانه في علم العربية ، اخذ عنه الزجاج وابن السراج ، وقال غير واحد من تلامذته انه اعلم من المبرد طوف في بلاد الشام ، وكان متهما بالاعتزال ، ولجأ الى الامير البويهي عضد الدولة وصنف له كتاب الايضاح في النحو ، والتكملة في التصريف ، ويقال ان عضد الدولة حين حمل اليه

ابو علي كتاب التكملة قال : « غضب الشيخ وجاء بما لا نفهمه نحن ولا هو » وكان عضد الدولة هذا اديبا شاعراً ، اورد له الثعالبي طائفة من القصائد ، وقال ابن عباد في مدح بعض قصائده ما لا يقال في شعر شاعر . كان ابو علي مع عضد الدولة هذا ، فقال له : بم ينتصب المستثنى؟ فقال ابو علي : « بتقدير استثنى » فقال له : لم قدرت استثنى فنصبت ، هلا قدرت امتنع زيد فرفعت » فقال : هذا جواب ميداني ، فاذا رجعت قلت الجواب الصحيح » .

ولما خرج عضد الدولة لقتال ابن عمه قال لأبي علي : « ما رأيك في صحبتنا » فقال : « انا من رجال الدعاء لا من رجال اللقاء فخار الله للملك فى عزمته ، وانجح قصده في نهضته ، وجعل العافية رداءه والظفر تجاهه ، والملائكة انصاره ، فقال له عضد الدولة : بارك الله فيك فانى واثق بطاعتك . »

وكان يأخذ بالقياس ويعيره اهتمامه حتى حكي عنه ابن جنى تلميذه انه كان يقول : اخطأ فى مائة مسئلة لغوية ، ولا اخطأ في واحدة قياسية » ومن تصانيفه : الحجة ، والتذكرة وتعليقة على كتاب سيبويه والمسائل الحلبية ، والبغدادية والقصرية والبصرية ، والشيرازية وغيرها.

ويقول السيوطي انه لم يقل من الشعر الا ثلاثة ابيات هي :

خضبت الشيب لما كان عيبا وخضب الشيب اولى ان يعابا

ولم اخضب مخافة هجر خل ... ولا عتبا خشيت ولا عتـابا
ولكن المشيب بدا ذميما ... فصيرت الخضـاب له عقـابا

ابو علي القالي

هو ابو علي اسماعيل بن القاسم بن عيذون بن هارون بن عيسى ، ابن محمد بن سلمان ، وجده سلمان هذا مولى لعبدالملك بن مروان ، ولد القالي بمناز جرد من ديار بكر ، ونشأ بها ، ورحل الى العراق لطلب العلم ، والقالي نسبة الى قالي قلا - بلد من اعمال ارمينية - قال القالي عن نفسه « لما انحدرنا الى بغداد ، كنا في رفقة كان فيها اهل قالي قلا ، وهي قرية من قرى مناز جرد ، وكانوا يكرمون لمكانهم من الثغر ، فلما دخلنا بغداد نسبت اليهم لكوني معهم ، وثبت ذلك علي » .

ودخل القالي بغداد سنة ٣٠٣ ﻫ ، وسمع الحديث على جملة من العلماء منهم عبدالله بن محمد البغوي ، وابو سعيد الحسن بن علي بن زكريا العدوي ، وابو بكر عبدالله بن ابي داود السجستاني وقرأ النحو والعربية على ابن درستويه والزجاج ، والاخفش الصغير ، ونفطويه وابن دريد ، وابن السراج ، وابن الأنباري وغيرهم .

ونبغ ابو علي في علوم اللغة ، وذاعت شهرته ، فاستدعاه عبدالرحمن الناصر خليفة الأندلس ، ووصل ابو علي الى هناك فاستقبل استقبالا عظيما ، وكان ولي العهد « الحكم » ووزراء الخليفة من المستقبلين ،

واكرم الناصر وفادة ابى علي وخصه بتعليم ابنه «الحكم» وسمع علماء الاندلس بسعة اطلاع ابى علي، وطول باعه فى اللغة وفنونها، فاقبلوا عليه يستفيدون من محاضراته فى اللغة والأدب، وكان يمليها من حفظه في ايام الاخمسة بقرطبة، وفى المسجد الجامع بالزهراء المباركة. ويقول ياقوت في معجمه «وممن روى عن القالي ابو بكر محمد بن الحسين الزبيدي النحوي، صاحب كتاب مختصر العين، واخبار النحويين، وكان حينئذٍ اماماً فى الأدب، ولكن عرف فضل ابي علي فمال اليه، واختص به واستفاد منه، واقرّ له»

ويقول الضبي فى كتابه بغية الملتمس: «كان احفظ اهل زمانه للغة، وأرواهم للشعر، واعلمهم بعلل النحو على مذهب البصريين واكثرهم تدقيقاً فى ذلك»

وانقطع ابو علي بقية عمره بالأندلس واملاه كتبه التي منها: كتاب الأمالي، وكتاب الابل، وكتاب حلي الانسان والخيل وشياتها، وكتاب مقاتل الفرسان، وكتاب تفسير السبع الطوال.

وتوفى ابو علي بقرطبة سنة ٣٥٦ هـ. ويروي بعضهم انه كان مكتوباً على قبة قبره:

صلوا لحد قبري بالطريق وودعوا

فليس لمن وارى التراب حبيب

ولا تدفنوني بالعراء فربما
بكى إن رأى قبر الغريب غريب

ابو القاسم (ابن القطاع)

هو ابو القاسم علي بن جعفر السعدي الصقلي المولد، المصري الدار والوفاة ، كان احد أئمة الادب ، خصوصاً اللغة وله تصانيف مفيدة ، منها كتاب الافعال ، وكتاب ابنية الاسماء ،وفيه دلالة على كثرة اطلاعه وله كتاب الدرة الخطيرة فى المختار من شعر شعراء الجزيرة ، وكتاب لمح الملح ، جمع فيه جماعة من شعراء الاندلس .

رحل من صقلية ، حين تملكها الافرنج ـ ووصل الى مصر فأكرمه اهلها ، وله نظم لطيف منه :

فلا تنفدن العمر في طلب الصبا ولا تشقين يوما بسعدي ولانعم
ولا تندبن اطلال مية باللوى ولا تسفحن ماء الشؤون على رسم
فان قصارى المرء ادراك حاجة وتبقى مذمات الاحاديث والاثم

كانت ولادته سنة ٤٣٣ ﻫ وتوفي بمصر سنة ٥١٠ ﻫ .

ابو القاسم (الزمخشرى)

هو ابو القاسم جار الله الزمخشري ـ كان اماماً فى التفسير والنحو واللغة والادب . ولد بمدينة « زمخشر » قرية من قرى خوارزم عام ٤٦٧ ﻫ . كان مقطوع الرجل ، يعتمد على رجل من خشب ، سألوه عن

سبب هذا فقال : « رحلت الى بخاري فى طلب العلم فسقطت عن الدابة في اثناء الطريق فانكسرت رجلى واصابنى من الالم ما اوجب قطعها » ويروون ايضا انه اصابه برد الثلج في بعض اسفاره فسقطت رجله . كان الزمخشري معتزلى المذهب مجاهراً باعتزاله ، وقد فسر القرآن فى تفسيره الكشاف ، تفسيراً بلاغيا ، ظهرت فيه طبيعة المعتزلة الذين تقوم بحوثهم على الترتيب المنطق والعناية بالجمال الفنى ، وللزمخشري شعر لا تظهر فيه الحلاوة التي نراها فى شعر الشعراء المطبوعين ، ولكنه شعر العلماء ، من هذا ما قاله في « كشافه » بمدحه :

ان التفاسير فى الدنيا بلا عدد　　وليس فيها لعمري مثل كشافى
ان كنت تبغي الهدى فالزم قراءته　　فالجهل كالداء ، والكشاف كالشافى

وله نثر ينحو به نحو الصنعة والسجع ، منه قوله في كتابه « الاطواق » استمسك بحبل مواخيك ، ما استمسك بأواخيك ، واصحبه ما صحب الحق واذعن ، وحل مع اهله وظعن ، فان تنكرت انحاؤه ، ورشح بالباطل اناؤه ، فتعوض عن صحبته وان عوضت الشسع وتصرف بحبله ولو اعطيت النسع . »

توفى الزمخشري بقصبة خوارزم ليلة ٥٣٨ ﻫ ، وله مؤلفات كثيرة منها : « تفسير الكشاف » و « الفائق في غريب الحديث » و « شرح كتاب سيبويه » « وكتاب الجبال والامكنة » و « اساس البلاغة »

و« كتاب النموذج في النحو » و« المفصل » في النحو وله « اعجب العجب في شرح لامية العرب » وله ديوان شعر ، وله غير هذا كثير وذكر ياقوت طائفة من كتبه في معجمه . انظر ۲۰ - ۱۳٤ من معجم ياقوت .

ابو منصور الثعالبي

هو ابو منصور عبدالملك بن محمد بن اسمعيل النيسابوري الثعالبي ، لقب بالثعالبي ، لأنه كان فراءً بجلد الثعاب ، وهو خاتمه مترسلي عصره ، واوسعهم مادة ، واكثرهم آثاراً وهو الذي ترجمهم وذكر اخبارهم ؛ وله نظم حسن ونثر حسن ، وله من الكتب ما يبعث العجب كثرة ، وقد وصلنا منها نحواً من اربعين كتابا ، والكثير منها مطبوع متداول ، ومن اشهر هذه الكتب « يتيمة الدهر في محاسن اهل العصر » وهي تشمل اخبار شعراء المائة الرابعة للهجرة ، وقد قسم الكلام فيها الى ابواب باعتبار البلاد ، فافرد بابا لشعراء الشام ، وبابا لشعراء مصر والمغرب ، وآخر لشعراء الموصل ، وآخر لشعراء البصرة وآخر لشعراء بغداد ، وهكذا وربما كان هو اول من نحا هذا المنحى في ترتيب الشعراء ... ويؤخذ عليه في كتابه هذا - وربما كان اشهر كتبه - انه يكتفي بذكر بعض الأشعار للشاعر المترجم له ، ويغفل ذكر سنة الولادة والوفاة . ومن كتبه « فقه اللغة » وهو معجم معنوي جمعت فيه المعاني

المتقاربة او المترابطة في باب واحد مع بيان الفرق بينها ، او تدرجها ، او تفرعها ... ومن كتبه « الكناية والتعريض في البلاغه » ، و « سحر البلاغة » و « غرر البلاغة وطرف البراعة » و « من غاب عنه المطرب » و « ثمار القلوب في المضاف والمنسوب » وغيرها . وقد توفي سنة ٤٢٩ هـ .

ابو منصور الجواليقي

ابو منصور موهوب بن ابي طاهر ، احمد بن محمد الجوالبقي البغدادي ، والجواليقي نسبة شاذة الى عمل الجوالق وبيعها ، توفي في بغداد سنة ٥٣٩ هـ وله من العمر سبعون سنة ، كان اماما للخليفة المقتفي يصلي به الصلوات الخمس ، كان اماما في فنون الأدب ، وكان مفخرة بغداد في عصره ، صنف التصانيف الكثيرة ، منها شرح ادب الكاتب ، والمعرب ولم يعمل في بابه اكبر منه ، وتتمة درة الغواص ، وغير ذلك وهو في اللغة اقدر منه في النحو ، ويقولون إنه كان يختار فيه مسائل غريبة . وقد الف في علم العروض كتابا لطيفا ، ثم أخذ بمعرفة علم النجوم حتى اتقنه ، ويقولون ان الذي قاده الى هذا ان شابا سأله بيتين من الشعر ، ذكر فيهما الشمس والجوزاء والقوس ، فآلى على نفسه ان لا يجلس في حلقته حتى ينظر في علم النجوم ، ويعرف تسيير الشمس والقمر ، فنظر في ذلك وحصل معرفته ، وينسب للجواليقي شيء من الشعر ، وهو على قلته يرينا انه شعر العلماء ، لا شعر الشعراء المطبوعين .

الأصمعي

هو عبدالملك بن قريب ، من قيس ، والأصمعي كنيته ، نسبة الى « الأصمع » ولد بالبصرة عام ١٢٢ هـ . وتوفى عام ٢١٣ هـ ، انكب على التحصيل في البصرة وافاد من دروس الخليل ، وابى عمرو عيسى بن عمر ، وابى عمرو بن العلاء وصار اتقن القوم واعلمهم بالشعر ، واحضرهم حفظا ، وتلمذ له تلاميذ اشتهروا فيما بعد منهم : ابو الفضل الرياشي ، وابو هاشم السجستاني وابو سعيد السكري وغيره ، وكانت له ذاكرة عجيبة وعت فروع المعرفة في عصره ، كان متضلعا في لهجات العرب ، اهل الصحراء ، قدم الى بغداد في ايام الرشيد وتزعم الحياة العقلية التي كان يحياها بلاط الخليفة ، وترك بغداد الى البصرة حاملا معه ما حصله من اسباب الثروة في بغداد ، وحين ولى المأمون الخلافة بعد اخيه الأمين ، كان الأصمعي في البصرة ، فبعث اليه يستقدمه الى بغداد ، فاعتذر بضعفه وشيخوخته ، فصار المأمون يأمر بجمع المشكل من المسائل ثم يسيرها اليه فيجيب عليها ، وقد شهر الأصمعي بكثرة حفظه حتى قالوا إنه كان يحفظ ١٢٠٠٠ ارجوزة ، وحسبك على كثرة حفظه أن غالب مصنفي العرب يروون عنه حتى اننا نستطيع ان نستخرج بعض كتبه مما رووه عنه ، وهو لم يقتصر في مصنفاته على ايراد ابيات منفردة من الشعر او قصائد منه بل روى دواوين كاملة ، واليه يرجع الفضل في جمع دواوين اكثر الشعراء الذين وصلتنا دواوينهم .

وللأصمعي مؤلفات كثيرة ، ذكر ابن النديم منها نيفا واربعين كتابا ، عرف منها « كتاب الفرس » و « كتاب الأراجيز » و « كتاب الميسر » و « كتاب الغريب » وله من الكتب المطبوعة : الأصمعيات ، ورجز العجاج ، « وكتاب اسماء الوحوش » و « كتاب الابل » و « كتاب خلق الانسان » و « كتاب الخيل » و « كتاب الشاء » و « كتاب الدارات » و « كتاب الفرق » و « كتاب النبات والشجر » و « كتاب النخل والكرم » و « وكتاب الغريب » .

خلف الاحمر

هو ابو محرز البصري المعروف بالاحمر ، مولى أبي بردة بلال بن موسى الاشعري اعتق بلال ابويه وكانا فرغانيين. قال ابو عبيدة معمر ابن المثنى : خلف الاحمر معلم الاصمعي ، ومعلم اهل البصرة . وقال الاخفش : لم ادرك احداً اعلم بالشعر من خلف الاحمر والاصمعي. وقال ابن سلام : اجمع اصحابنا ان الاحمر كان افرس الناس ببيت شعر ، واصدق لسانا ، وكنا لا نبالي اذا اخذنا عنه خبراً او انشدنا شعراً الا نسمعه من صاحبه . وقال شمر : خلف الاحمر اول من احدث السماع بالبصرة وذلك انه جاء الى حماد الراوية فسمع منه ، وكان ضنينا بأدبه ، وقال ابو الطيب اللغوي : كان خلف يضع الشعر وينسبه الى العرب فلا يعرف ، ثم نسك ، وكان يختم القرآن كل ليلة ، وبذل له بعض الملوك

مالا عظيما على ان يتكلم ببيت شعر فأبى . وله ديوان شعر حمله عنه ابو نؤاس وكتاب جبال العرب . توفى في حدود الثمانين ومائة . وكان بين خلف وبين ابي محمد اليزيدي مهاجاة اورد يافوت طائفة منها .

عبد القاهر الجرجاني

قال الحافظ الذهبي في تأريخه « دول الاسلام »: «وفي سنة احدى وسبعين واربعمائة مات امام النحاة ، ابو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني صاحب التصانيف » وقال تاج الدين السبكي في طبقات الشافعية الكبرى : « عبد القاهر بن عبد الرحمن الشيخ الكبير ابو بكر الجرجاني النحوي، المتكلم على مذهب الاشعري، الفقيه على مذهب الشافعي ، اخذ النحو بجرجان عن ابي الحسين محمد بن الحسن الفارسي ابن اخت الشيخ ابي علي الفارسي»ومن مصنفاته كتاب المغنى على شرح الايضاح في نحو ثلاثين مجلداً ، وكتاب المقتصد في شرح الايضاح ايضا وكتاب العوامل المائة ، والمفتاح وشرح الفاتحة ، والعمدة في التصريف .

وهكذا ترى ان عبد القاهر كان عالما مبرزاً في غير فرع من فروع الثقافة العربية ، فهو النحوي ، المتكلم ، المفسر ، الفقيه ، ومع ان ابن خلدون زعم ان السكاكي هو الذي هذب علم البلاغة ، ولم ما قاله عنه السلف ، فان العلوى صاحب « الطراز في علوم حقائق الاعجاز » قال :

« واول من اسس من هذا الفن قواعده ، واوضح براهينه ، واظهر فوائده ، ورتب افانينه الشيخ العالم النحرير عبد القاهر الجرجاني . وله من المصنفات فيه كتابان احدهما لقبه بدلائل الاعجاز ، والآخر لقبه بأسرار البلاغة » .

قدامة بن جعفر

هو ابو الفرج قدامة بن جعفر ، نشأ في بغداد ، وعلا شأنه في ايام المكتفي بالله الخليفة العباسي ، فقد اسلم على يديه ، وكان قبل ذلك نصرانيا ، برع في صناعتي البلاغة والحساب ، وقرأ صدراً صالحا من المنطق ، وهو لائح على ديباجة تصانيفه ، وإن كان المنطق في ذلك العصر لم يتحرر تحريره الآن ، واشتهر في زمانه بالبلاغة ونقد الشعر ، وصنف في ذلك كتباً ، منها كتاب نقد الشعر له ، وقد تعرض ابن بشر الآمدي الى الرد عليه . وله كتاب في الخراج رتبه مراتب ، وأتى فيه بكل ما يحتاج الكاتب اليه - وله من الكتب . غير هذين الكتابين - كتاب درياق الفكر وكتاب السياسة ، وكتاب الرد على ابن المعتز فيما عاب به ابا تمام ، كتاب صناعة الجدل ، وكتاب الرسالة في ابي علي بن مقلة ، وكتاب نزهة القلوب ، وزاد المسافر ، وله غير هذا ، وكانت وفاته ببغداد ايام المطيع سنة ٣٣٧ هـ .

فهرس تفصيلي لموضوعات الكتاب

الصحيفة

الصحيفة

قطرب ، الفراء ، القاسم بن سلام ، ابن الأعرابى ، الأخفش الأوسط ، ابو اسحاق الزيادي ، ابو عثمان المازني ، العباس الرياشي ، ابو حاتم السجستاني ، عبد الرحمن بن عبد الله ابن قريب ، احمد بن حاتم الباهلي ، ابو عمرو الشيباني ، علي بن الحسن ، عليّ بن حازم اللحياني ، عبدالله بن سعيد الأموي .

المبرّد ، ثعلب ، الاشناندانى ، ابن السكيت ، عمرو بن ابي عمرو الشيبانى ، محمد بن حبيب الكوفي ، علي بن المغيرة الأثرم ابو سعيد السكري ، ابن قتيبة الدينوري ، الزجاج

١٠٠ اشهر كتب اللغة

الجمهرة ، البارع ، مختصر العين ، كتاب العشرات ، ديوان الأدب التهذيب ، غريب الالفاظ ، المحيط ، المجمل ، الصحاح ، الجامع ، الموعب ، المحكم ، فقه اللغة ، المخصص .

١٠٢ اشهر المعاجم فى المائة السادسة

تهذيب اصلاح المنطق ، مفردات القرآن ، السامى في الأسامى ، شمس العلوم ، اساس البلاغة ، الفائق ، كتاب الامكنة والجبال والمياه

١٠٣ اشهر المعاجم في المائة السابعة

المغرب ، كفاية المتحفظ ، العباب ، كتاب التكملة والذيل ، مجمع البحرين ، كتاب الاضداد .

الصحيفة

فهرست الاعلام

الصحيفه

ـ الألف ـ

(١) * هذه العلامة تعني ان الاسم قد عرف به في آخر الـكتاب

الصحيفة

الصحيفة

الصحيفة

الصحيفة

الصحيفة

الصحيفة

الصحيفة

الصحيفة

الصحيفة

— العين —

الصحيفة

— الكاف —

— اللام —

— الميم —

الصحيفة

الصحيفة

كلمة الدكتور جميل سعيد

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب له قيمتان ، قيمة علمية واخرى توجيهية او منهجية ، اما قيمته العلمية فتراها في ان الكتاب عرض لهذه العلوم العربية فألم بتأريخ كل منها المامة بين فيها نشأة العلم ، وبداية تدوينه ، وعرض فيها لعوامل نمائه واتساعه وتشعبه ، وعرض في هذا لما يحدث من الصراع بين المذاهب الحديثه التي تحاول ان تغير اتجاه سير العلم ، وبين المذاهب القديمة المحافظة التي تحاول ان تحجر قواعده وتجمد عليها ، ترى هذا واضحاً في التطاحن العنيف القوي بين اراء المجددين الذين يريدون ان يدخلوا الألفاظ الأعجمية الى العربية ، وبين الذين يريدون ان يبعدوا كل ما هو اعجمي مهما دعت الحاجة اليه والحث . وتراه واضحا في الصراع بين النظريات والمذاهب النحوية ، التي انقسم فيها الناس الى معسكرين كبيرين هما معسكر البصرة ، ومعسكر الكوفة ، وصار الناس يتعصبون لها تعصبهم لمذاهبهم الدينية والسياسية ، بل ربما كانت عصبيتهم لها أشد من عصبيتهم لمذاهبهم ونحلهم .

وكما ترى هذا في النحو تراه في البلاغة ، فقد انقسم فيها الناس الى معسكرين ، او مدرستين هامتين ، هما مدرسة الأدباء ومدرسة

المتكلمين . وإن شئت سميتهما ـ كما سماها الأقدمون ـ مدرسة العرب ومدرسة العجم . والأولى تعنى بالناحية الفنية الذوقية ، والأخرى تعنى بتقسيم الكلام الى قواعد ونظريات تقحم فيها شيئا من المنطق والفلسفة ، ولا تخليها من الآراء الدينية والمذهبية .

عرض مؤلفه ـ رحمه الله ـ الى هذا التطاحن باسلوب ممتع شيق ، وقد اوتي من سعة الاطلاع ، وقوة العقل ، وقدرة السيطرة على اللغة ما جعله يعرض عليك ادق المسائل العلمية عرضا يبسطها فيه ويسهلها ، حتى يجملك تقرؤها فتراها واضحة سهلة ، وحتى تعجب من شدة غموض هذه الموضوعات في الكتب العربية القديمة ، ومن سهولتها وشدة وضوحها فيه ، ترى هذا فى موضوعات النحت والقلب والابدال وما اليها من الموضوعات التي يفرق دارسو العربية من اسمائها .

ومع ان الكتاب قد جاء موجزاً أشد الايجاز فانه قد حوى من المسائل الهامة الدقيقة ما لا تعثر عليه في اكبر الكتب المفصلة ، ولقد صدق الاستاذ الكريم الدكتور مصطفى جواد حين قال إنه : « لا يغنى عنه كشف الظنون ، ولا موضوعات العلوم ولا غيرهما .. »

وقبل ان نأخذ فى الناحية المنهجية ـ وهي عندنا اهم من الناحية العلمية فى هذا الكتاب ـ نقول لك : إننا ما زلنا الى الآن نتعصب للمذهب الغالب من المذاهب القديمة ، الذي انتصر على غيره من المذاهب وخنقها ، فنحن فى النحو نتعصب لمذهب البصريين ، ولا نقرأ النحو

الا فى الكتب التي تعصب اهلها له ، ونهمل المذهب الكوفي ، على ما به من حسنات وآراء جديرة بالاعتبار .

ونحن في البلاغة نتابع مذهب المتكلمين ، ونقرأ البلاغة متبعين ما سماه القدماء ببلاغة العجم ، وعلى هذا النحو الف المعاصرون الكتب الحديثة التي يربى عليها الناشئة الآن . وقد اهملت مدرسة الأدباء الذوقية - التي سمى القدماء بلاغتها ببلاغة العرب - أيما اهمال . وهي افضل من صاحبتها فى تربية الملكة الفنية ، واعون على ذوق الكلام ومعرفة جيده من رديئه ، وحسنه من قبيحه .

وكذلك نحن الآن امام هذه الألفاظ الأعجمية . إننا نحاول ان نوصد الباب بوجه كل كلمة غريبة ، ونتلمس لمدلولها كلمات عربية ميته ، نحملها معانيها فتنوء بالحمل ، ويعرض الناس عن استعمالها نافرين .

* * *

أرأيت هذا ؟ من اجله اذاً قلت : إن الناحية المنهجية فى الكتاب ، أهم من الناحية العلمية ، إنه يدعو الى تغيير طرق الدراسة ، ومؤلفه - رحمه الله - لا يعنف ولا يشتد حين يعرض هذه الطرق ، بل يخاطب بها القارىء وكأنها من البديهيات التي لا تحتاج الى مناقشة ولا جدل ، يقول في التعريب : « ولا جرم ان استمداد لغة من اخرى يعد من اساليب نمائها ، فالتعريب بالنسبة للغة العربية احد عوامل توسعها .. لأن اللغة الحية تشبه المخلوقات تفتقر في بنائها ونمائها الى مختلف الاغذية

وفي عداد هذه الاغذية ما تنتزعه لغة من اخرى من مختلف الكلم [١]»

وهو يلوم المحافظين المتشددين بأن يقول: «.. ثم ما لنا وللمتشددين من متأخري النحاة الذين كلما انفتح أمام اللغة باب تتنفس منه هرعوا اليه وسدوه، على زعم انهم يخدمونها بالمحافظة عليها، وسد مسالك العجمة عنها .. وفاتهم انهم بهذا الصنيع يعملون على اماتة العناصر فيها، وابعاد عوامل النماء عنها [٢]» ويرى - كما رأى متحرروا السلف - ان تؤخذ الالفاظ الاعجمية فتحور بعض الشيء، او تبقى كما هي، يقول: «وبالجملة فان الجمهور من اهل العربية لا يشترطون رد المعربات الى ابنية اللغة العربية، ولكنهم يستحسنون ذلك اذا جاء بسهولة، لتكون المعربات المقحمة على العربية شبيهة باوزانها [٣] ..»

اما البلاغة فيرى ان يرجع بدراستها الى احياء المدرسة الادبية، التي دحرتها وخنقتها مدرسة المتكلمين العقليين، يقول: إن ما يعنيه القوم - قديماً - من امر البلاغة، غير ما نعنيه نحن اليوم، فانهم يريدون به تلك المباحث التي تدور حول الخصائص التي ترفع قدر الكلام، وتكسوه جمالا وجلالا، مع بيان العيوب التي تحط من قدر القول، وتكسبه قبحاً وسخافة، وهذا ما تهدينا اليه دراسة البلاغة على طريقة المدرسة الادبية، وهو من اجل هذا يفاضل بين المدرستين فيرى ان «المفتاح وتلخيصه، والايضاح، وان كانت احسن من غيرها من

(١) ص ٤٩ (٢) ص ٦٢ (٣) ص ٦٢

حيث التبويب ، والتنسيق العلمي من الوجهة النظرية ، الا ان ما كتبه عبد القاهر الجرجاني ومن اقتفى اثره ، اقوى اثراً في تقويم الالسنة وتثقيف الاقلام من الوجهة العلمية ، فالنوع الاول يتخرج به علماء في فنون البلاغة ، والثاني يتخرج به بلغاء حقا (١) .. » ويتحامل على طريقة هذه المدرسة ، وهي الطريقة التي تدرس في مدارسنا الان ، فيقول : « وقد ثبت بالتجربة ان معظم اولئك الذين يعتمدون في تحصيلهم على التلخيص وشروحه وحواشيه ، وما الى ذلك يتعسر على احدهم ، إن لم نقل يتعذر ، ان يكتب رسالة صحيحة فضلا عن ان تكون بليغة (٢)..

اما النحو فقد اعاره اهمية بالغة ، ونقد كتبه وطرائق تدريسه ، وعقد فصلا طويلا للحديث عن عاهات كتب النحو ولام المؤلفين المعاصرين حين تقاعسوا ولم ينتفعوا بما ابدعته قرائح المعاصرين من رجال التربية والتعليم من بدائع الاساليب وتوخي السهولة في حسن الترتيب والتبويب ، ورأى ان من اسباب انصراف الناشئة عن دراسة النحو انهم رأوا العلوم الأخرى قد صقلت جوانبها وهذبت ، وصبت

(١) ١٦٣

(٢) ص ١٦٣ ، وقد اخذت دار المعلمين العالية بدراسة البلاغة في كتب عبد القاهر وابن الاثير ، متبعة طريقة الادباء ونرجو ان تنبه لجنة المناهج في وزارة المعارف فتتغير طرقها وكتبها في المدارس الثانوية .

بقوالب قدرتها ايدي التربية العصرية واصول التعليم اي تقدير ، وبقي علم النحو - كثيره من علوم اللسان العربي - في معزل عن هذا الاصلاح ، وقد عرض لطرائق عرض الموضوعات النحوية فنقدها في صميمها ، قال : « وما قولك في ان جمهرة المؤلفين في هذا الشأن من المعاصرين - على شدة عنايتهم في صقل مؤلفاتهم - ذهلوا عن هذا الأمر فوقعوا في المحظور التعليمي الذي وقع فيه من سبقهم ... نجدهم يقولون في مبادىء كتبهم مثلا ، الفعل المتعدي : هو الذي ينصب المفعول به ، والفعل المعلوم : هو الذي يذكر فاعله ، مع ان الطالب لم يعرف شيئاً من أمر النصب ، والمفعول به ، والفاعل . وتفهيمها يتوقف على دراسة ابواب لم تزل معقودة في ناصية المستقبل (١) »

ويرى - رحمه الله - ان هذه المذاهب التي نسير عليها اليوم ، لا يمكن ان نتجافاها ما دامت كتبها بأيدينا ، فيعرض لهذه الكتب بشيء من النقد يقول فيه « ومع الأسف فانا نجد كثيراً من هذه الكتب الجافة تتداولها الأيدي وتتدارسها المتعلمة من ابناء هذا الجيل ، وما ذلك - في نظرنا - الا لان ايدي الطباعة تناولتها قبل غيرها ، واخرجتها للناس ، فأولع بها من نابته العصر من لم تصل يده الى سواها (٢) »

* * *

وقبل ان افرغ من هذه الكلمة اقول : ان القاريء قد يجد في

(١) ص ١٥٢ (٢) ص ١٣٩

هذا الكتاب اقتضاباً شديداً ، ويرى فيه وعوداً بالحديث عن فكر او رجال ، ثم يختم الكتاب ولا يجد تحقيق هذه الوعود . اما الأمر الأول فعلته ان المؤلف ـ رحمه الله ـ كتب هذا الكتاب لطلابه فى دار المعلمين العالية ببغداد ، وهم لا يدرسون هذا الدرس الا ساعة واحدة فى الاسبوع ، ولمدة سنة دراسية واحدة . واما علة الأمر الآخر فان يد المنون قد اختطفته ـ رحمه الله ـ ولما يفرغ من اتمامه واعادة النظر فيه . واعتذر الى القاريء بأني لا املك حين اكتب هذه الكلمة أن اصد ذكراه عن خاطري ، وأن أجرى على لساني :

وانى إن أسلوك او ادع البكا   فباليأس أسلو عنك لا بالتجلد

جميل سعيد

﴿ انتهى ﴾